

كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع؟

• المشكلات المزمنة تحتاج العالم الإسلامى كله :

لا ينكر عاقل أن وطننا العربى الكبير من الخليج إلى المحيط ، وأن وطننا الإسلامى الأكبر من المحيط الهادى - شرقاً - حيث جزر أندونيسيا المسلمة إلى المغرب والسنغال على شاطئ الأطلسى - غرباً - ومن روسيا الآسيوية - شمالاً - إلى أواسط إفريقيا - جنوباً - يعانيان مشكلات متعددة متنوعة : مشكلات مادية وإنسانية ، داخلية وخارجية ، مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وأخلاقية .

وكلها تتطلب الحل ، والحل الحاسم السريع ، فإن مرور الأيام لا يزيدها إلا تفاقمًا واستفحالاً ، كالداء الخبيث الذى يتضاعف خطره كلما تأخر علاجه ، وربما أدى إهماله إلى تمكن الداء ، واليأس من الشفاء .

إن أجزاء كثيرة من هذا العالم الفسيح تشكو من سيطرة الأجانب - غير المسلمين - على أرضها ، وتحكمهم فى أهلها ، كفلسطين وكشمير وأريتريا والحبشة وقبرص وبخارى وسمرقند وغيرها من ديار الإسلام .

والأجزاء الأخرى من هذا العالم تشكو من هذا التمزق العجيب والتجزئة المفتعلة ، والحواجز المصطنعة ، التى جعلت من الأمة الواحدة - كما رضى الله لها - أمماً ودولاً - كما شاء الاستعمار - يجافى بعضها بعضاً ، بل يضرب بعضها وجوه بعض . حتى لترى بعضهم يقف مناصراً لأعداء المسلمين ضد المسلمين ، استجابة لنعرات جاهلية ، أو خضوعاً لسياسة استعمارية غربية أو شرقية .

والناس داخل هذا العالم الإسلامى يشكون ويتوجعون : الكبير يشكو ، والصغير يشكو ، والمثقف يشكو ، والأمى يشكو ، والطبقات كلها تشكو ، والشعوب كلها تشكو .

أجل .. تشكو شعوبنا تخلفاً فى العلم ، وتخبطاً فى السياسة ، واضطراباً فى الاقتصاد ، وتفككاً فى الاجتماع ، وتدهوراً فى الأخلاق ، وبلبلة فى الأفكار ، وزعزعة فى العقائد ، وضعفاً فى التربية ، وخواء فى الروح ، واختلافاً فى الصفوف : اختلافاً على الغايات والأهداف ، فضلاً عن الوسائل والطرائق .

وقد كشفت النكبة الأخيرة ^(١) - التى يخفف بعض الناس من مرارة وقعها فيسمونها « نكسة » - عن هذا الفساد العريض ، والانحلال المتغلغل فى كيان الأمة ، والضعف الكامن فى كل جوانبها . وعادة الجسم العليل أن تبرز كوامن علته لأدنى وعكة تصيبه ، فتخور قواه ، وتنهار صحته ، ولا يجد قدرة على الصمود والمقاومة لأضعف « الميكروبات » ، وإن كان فى ظاهره غنياً باللحم والشحم .

* *

• أين الحل ؟

والسؤال الآن ، الذى يجول فى كل فكر ، ويجرى على كل لسان ، ويتحدث به كل منتدى : ما العلاج الناجع لهذه الأدواء المزمنة ؟ وما الحل الحاسم لهذه المشكلات جميعاً ؟

إن اليأس من وجود حل حاسم ومن دواء ناجع ، والاكتفاء بالحويلة والاسترجاع ، وإبداء الأسف - الشديد - على ما انتهت إليه حال العرب والمسلمين ، دون البحث عن الحل ، والتفتيش عن العلاج - إنما هو هروب من الواقع ، وفرار من الزحف ، ومناقضة لطبيعة الإيمان . التى لا يعرف اليأس إليها سبيلاً ف ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(٢) ..

(١) نكبة ٢٥ صفر ١٣٨٧ - ٥ يونيه (حزيران) ١٩٦٧

(٢) يوسف : ٨٧

لقد علّمتنا تجاربنا وأمثالنا : أن « كل عقدة لها حلّال » وعلّمتنا ديننا ونبينا : أن الله ما خلق داءً إلا خلق له دواء . علمه من علمه وجهله من جهله . وهذا يُطبّق على الأدوية المعنوية . كما يُطبّق على الأدوية الحسية ، لهذا كان لازماً ، على كل ذى رأى وفطنة ، وكل ذى علم وخبرة ، أن يتقدم بما عنده من حل ، وما لديه من علاج ، حتى نرى أى الحلول أجدى وأنجع ، وأليق بنا وأولى .

* * *

● الحل الطبيعى والحلول المصطنعة :

والحلول التى تقوم فى عالمنا العربى والإسلامى ، لعلاج أدوائنا المادية والمعنوية ، وللتخلص من التناقض والعقد التى يعانىها هذا الجيل فى حياته الفكرية والروحية والاجتماعية ، نستطيع أن نحصرها فى حلول ثلاثة :

١ - الحل الإسلامى القرآنى .

٢ - الحل الديمقراطى الليبرالى .

٣ - الحل الاشتراكى الثورى .

ولك أن ترد هذه الحلول الثلاثة إلى حلين اثنين :

الحل الطبيعى ، والحل المصطنع .

والحل الطبيعى هو الحل الأصيل النابع من ضمير الأمة وعقيدتها وتراثها ، وذلك هو الحل الإسلامى .

والحل المصطنع هو الحل الدخيل المستورد من أرض غير أرضنا ، وقوم غير قومنا ، وذلك هو الحل المأخوذ عن الغرب ، بشقيه : الديمقراطى الرأسمالى ، والاشتراكى الماركسى .

* * *

● كيف دخلت الحلول الأجنبية المصطنعة بلادنا ؟

أما كيف دخلت الحلول المصطنعة بلادنا أو كيف صار لها دعائها وأنصارها ؟ وكيف طاردت الحل الأصيل فى عقر داره ؟ وكيف تبنتها أحزاب وحكومات ؟ فإن لذلك تاريخاً طويلاً نكتفى منه بما يأتى :

لقد عاش العالم الإسلامى - نحو ثلاثة عشر قرناً - ملتزماً بمبدأ واحد ، ومنهج واحد ، لا يحتكم إلا إليه ، ولا يعول إلا عليه ، ولا يستفتى فى شئون حياته وما بعد حياته غيره ، ولا يفكر فى حل لمشكلاته إلا على أساسه وبلاستمداد منه ، ذلك المبدأ وذلك النظام هو الإسلام ، الذى ارتضته هذه الأمة ، وارتضاه الله لها وأتم به عليها نعمته : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) ..

وكانت هذه الأمة توقن أن هذا المبدأ الذى اعتنقته والنظام الذى اتبعته ، هو سر قوتها ، وينبوع سعادتها ، وصانع حضارتها ، ورافع ذكرها فى العالمين ، وأن كل نصر أحرزته وكل خير أدركته ، إنما هو بسر الاستمسك بعراه ، والاهتداء بهديه ، وأن كل ضرراً أصابها ، وكل ذل ركبها ، إنما هو بسبب التفريط فى هذا المبدأ والبعد عن تعاليمه ، لا يختلف فى هذه القضية اثنان ، ولا ينتطح فيها عتزان ، كما يقال .

لم يفكر حاكم من الحكام طوال هذه القرون الثلاثة عشر أن يرفض الالتزام بمبدأ الإسلام ، والاحتكام إلى شرعه ، وإن بلغ فى الاستبداد والطغيان ما بلغ . ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه يوماً ما نظام غير نظام الإسلام ، أو تسود فيه فكرة غير فكرة الإسلام .

كان الاعتزاز بهذا المنهج أو هذا النظام جزءاً من عقيدة كل فرد مسلم ، كان يغالى به ويزهى ، ويعتقد أنه وحده الحق : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ؟ (٢)

كان يؤمن أن فى هذا النظام لكل داء دواء ، ولكل معضلة علاجاً ، ولكل عقدة حلاً ، وأن علاجه لا يدانيه علاج آخر يضعه البشر لأنفسهم ، أو يستمدونه من أديان منسوخة محرقة ، انقضى زمنها وانتهت مهمتها .

كان كل مسلم يعتقد أن « الحل الإسلامى » لمشكلات الحياة هو الحل الفذ ، والحل الناجع ، لأنه حل وضعه الله لعباده ورضيه لهم ، وهو بهم برّ رحيم ، كما أنه بهم عليم خبير : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) ..

* *

• الزحف الغربى على العالم الإسلامى وتأثيره :

كان هذا الاعتقاد هو السائد فى العالم الإسلامى ، حتى كان هذا القرن الأخير والذى قبله ، حيث واجه الشرق الإسلامى زحف كثيف من العالم الغربى المسيحى . ولم يكن هذا الزحف عسكرياً فحسب ، كزحف الحروب الصليبية من قبل ، بل كان زحفاً عسكرياً سياسياً اجتماعياً ثقافياً .

ووجه العالم الإسلامى بهذا الزحف الحاقد الطامع ، وهذا الغزو المنظم ، فقاوم كثيراً ، ووقف موقفاً صلباً من الحضارة الغازية ، فى مختلف أقطاره ، ولكنه لم يستطع أن يحرز النصر .

كان هناك انحطاط عام فى كل ميدان من ميادين الحياة الإسلامية - نتيجة لبُعد المسلمين عن الإسلام الصحيح فهماً وتطبيقاً - أجل .. كان هناك تخلف فى العلم ، وجمود فى التفكير ، وركود فى الفقه والتشريع ، وقصور فى التربية والتوجيه ، وفساد فى الإدارة والحكم ، وكان العدو الزاحف المنتصر متفوقاً فى هذه المجالات ، فبهر أبصار الكثيرين ، وخبب ألبابهم ، فبدأوا يسيرون فى دروبه ، ويتبعون سُنَّته ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع .

وبدأ العدو الزاحف الماكر يخطط للاستيلاء على شعوب هذا العالم الإسلامى

بعد أن استولى على أرضه ، فقد علم أن الاستيلاء على الأرض ليس معناه الاستيلاء على أهلها . إن الاستيلاء على الأرض يتم بقوة السلاح ، أما الاستيلاء على البشر فلا يجدى فيه الأسلحة ولا تغنى الجيوش والأساطيل . فلا بد - إذن - من عمل منظم « لتغريب » العالم الإسلامى حتى يقبل الاستعمار الغربى ، ويهضم حضارته ، ويتسلمذ على أهله . ولهذا رسم خطته بدهاء ومكر ، وشرع ينفذها بأناة وصبر . لم يصنع ما كان يصنع الفاتحون الأوّلون من تدمير المساجد أو تحريق المصاحف ، أو إلقاء الكتب فى البحار والأنهار .

لقد صمم الغرب الصليبي الزاحف أن يهدم ويدمر ، ولكن بأسلوب غير أسلوب التتار والصليبيين القدماء ، لقد اتجه إلى تدمير العقائد والأفكار ، وهدم القيم والأخلاق ، وتحطيم الآداب والتقاليد ، بمعاول خفية لا تراها الأعين بسرعة ، ولا تلمسها الأيدى بسهولة ، وبأساليب مأكرة لا تثير الشعوب ، ولا تغضب الجماهير ، وبهذا نجح فى قتل الشعوب ولكن بغير إطلاق الرصاص ، وضرب السيوف ، بل بطريقة السم البطيء ، يوضع فى الدسم والحلوى !

لم يكن من هم المستعمر الدخيل فى أول الأمر أن يوجّه عمله إلى الشعب ليزحزحه عن دينه ، ويشككه فى منهجه الإلهى ، فيهيجه على حكمه ، ويحرضه على مقاومته ، بل ترك الشعوب فى غفلاتها ، ووجّه أكبر همه إلى تكوين قادة للمستقبل ، قادة يصطنعهم لنفسه ، ويصنعهم على عينه ، ويربهم فى أحضانه ، ويغذيهم بثقافته وأفكاره ، ويغرس فيهم الخضوع - عن طواعية - لنظمه وتقاليده ، والتقديس لناهجه وفلسفته .

إن صناعة هذا الجيل الذى سيقود السفينة فيما بعد ، ويقبض على زمام التوجيه والتثقيف والتربية والإدارة والسياسة والتشريع ، كانت أهم ما عنى به الاستعمار الخبيث . وكان النجاح فى صناعته أعظم نصر حققه فى المعركة بينه وبين الشرق الإسلامى ، منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتى اليوم .

يقول الأستاذ : « برنارد لويس » رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات الشرقية فى جامعة لندن :

« لقد مرت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام مهدداً فيها فى الوقت نفسه من الشرق والغرب ، غير أن الإسلام تغلب عليها ، واجتازها دون أن يتأثر . جاء الأتراك غزاة فاتحين فتحولوا إلى مسلمين مؤمنين ، وتمثلهم المجتمع الإسلامى الكبير فانصهروا فى بوتقته ، وكانوا هم أنفسهم من أقوى أعمدة الإسلام التى أقامت مجتمعاً متدهوراً كاد يفنى اجتماعياً وسياسياً ، وبهذه القوة والحيوية تمكن الإسلام من الصمود ، بل من دحر غزوات أعدائه الصليبيين الذين جاءوه من الغرب .

« ثم واجه الإسلام بعد ذلك لظمتين أشد وأقسى وأحدث وأخطر ، فلقد سُحق الشرق الأوسط الإسلامى مرتين واحتله الغزاة الأجانب الذين سيطروا عليه بقوة السلاح ، وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا تحطيم حضارته الإسلامية القديمة الأصول ، فإنهم « لغَموا » ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم ، وهكذا حولوا وجهتهم نحو اتجاهات جديدة .

« أولى هاتين اللظمتين كانت الغزو المغولى فى أواسط آسيا التى حطمت الخلافة القائمة . وأخضعت للمرة الأولى - منذ عهد النبوة - قلب العالم الإسلامى لحكم غير إسلامى .

أما اللظمة الثانية فهى تأثير الغرب الحديث « (١) .

والذى يبدو ، أن اللظمة الثانية كانت أقسى وأشد خطراً من الأولى . فقد استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يؤثر فى التتار المنتصرين ويجذبهم إلى ساحته ، فتقع المعجزة الإسلامية ، ويدخل التتار فى دين الله أفواجا ، ويسجل التاريخ - مرة أخرى - اعتناق الغالبين دين المغلوبيين !

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٣٢ ، ٣٣ - تعريب الدكتور نبيل صبحى .

أما اللطمة الثانية فما زال العالم الإسلامى كله يقاسى آلامها ، ويعانى آثارها إلى اليوم .



● وسائل التأثير الغربى فى الشرق الإسلامى :

فما هى الوسائل التى انتصر بها الغرب على شرقنا المسلم ، ففسى نفسه ، وجعل قدره ، وفقد شخصيته ، وبات - فى ظاهر أمره - تلميذاً خاشعاً أمام حضارة الغرب ؟

● الوسيلة الأولى - التعليم والتربية :

والجواب : أن الغرب المستعمر الزاحف قد اتخذ التعليم والتربية وسيلته الأولى فى التأثير والتغيير الذى ينشده ، وقد ركز نشاطه فى هذا الجانب على كل الجبهات والمستويات ، سالكاً إلى غايته طرقات شتى :

* البعثات إلى الغرب :

أولاً : طريق الطلاب الذين يوفدون فى بعثات إلى ديار الغرب ، ليحصلوا العلوم الأوروبية - الحديثة فيما يزعمون ، والتى اقتبسوا جذوتها الأولى من المسلمين فى الأندلس وغيرها - وقد حرص المستعمر المتحكم على أن يجعل أكثرية المبعوثين إلى دياره يدرسون الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، لأنها هى التى تصنع للإنسان أفكاره وقيمه وموازينه ، وذوقه واتجاهه وسلوكه . هذا مع أن الشيء الذى كانت تحتاج إليه البلاد فى ذلك الحين - قبل كل شئ - هو العلوم المحضنة والعلوم التطبيقية ، التى يترتب على التفوق فيها الرقى الصناعى ، والنمو العمرانى ، والتقدم العسكرى ، والازدهار الاقتصادى . ولكن المستعمرين الماكرين أصروا على أن يحتكروا هم هذا الجانب المهم ، لتظل البلاد فى حاجة دائمة إلى خبرائهم ومعوناتهم ، ولتظل سوقاً مفتوحاً لبضائعهم ومصنوعاتهم ، فتؤخذ منها « المواد الخام » بأبخس الأثمان ، ثم تُرد إليها سلعاً تباع بأغلى الأسعار .

ولا غرو إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب ، يذهبون إليه شرقيين مسلمين ويعودون - إلا مَنْ عصم الله - « متغربين » علمانيين « لا دينيين » لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمى ، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم ، ونظرتهم إلى الدين وإلى الحياة وإلى الناس ، وإلى الماضى وإلى الحاضر ، وإلى النظم والشرائع وإلى الآداب والتقاليد . وبدا ذلك واضحاً فى سلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم ، وفيما يكتبون وينتجون فى ميدان الفكر والثقافة والتوجيه .

❖

* المدارس التبشيرية والأجنبية :

ثانياً : طريق المدارس والمؤسسات التبشيرية والأجنبية التى كان الاستعمار الغالب يربها رعاية الأب الحانى لولده ، ويقدم لها كل عون مادى وأدبى ، على حين يُضيقُ الخناق على المدارس والمؤسسات الوطنية ، وخاصة تلك التى تحافظ على عقيدة الأمة وثقافتها وتراثها .

لقد زرع الاستعمار فى كل بلد مئات المدارس التبشيرية التى تأخذ الطفل منذ نعومة أظفاره عجينة ليئة طيعة ، فتصوغه كما تريد وتنشئه كما تهوى . وتبعده عن الإسلام بقدر ما تُقرِّبه من النصرانية ، وتُحبِّبه فى حضارة الغرب بقدر ما تُبغضه فى حضارة الشرق .

وقد صرَّحت المبشرة « آنا ميلجان » عن هدف هذه المدارس ومهمتها فى بلاد العرب والمسلمين فقالت :

« إن المدارس أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى ، وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة أوطانهم » .

وتقول أيضاً عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة :

« فى كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن « باشوات وبكوات » وليس ثمة

مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي . وليس ثمة طريق إلى دحض الإسلام أقصر من هذه المدرسة « !! (١) .

وكانت كل المذاهب المسيحية تقوم بجهودها التبشيرية في جميع بلدان المسلمين .

يقول المستر « بشروز » رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت :

« لقد أدّى البرهان إلى أن التعليم أثنى وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان » .

ولم تقف جهود التبشير عند المدارس الثانوية والابتدائية ورياض الأطفال ، بل خطوا خطوة أخرى نحو إنشاء الكليات والجامعات والمعاهد العالية ، لتوجيه قادة المستقبل كما يشتهون ويحبون . وقد عرف الشرق الإسلامي عدة مؤسسات من هذا النوع .

« وإن من أشهر المؤسسات التعليمية في الشرق العربي جامعة القديس يوسف في لبنان ، وهي جامعة بابوية كاثوليكية ، وتُعرف الآن بالجامعة اليسوعية ، والجامعة الأمريكية ببيروت التي كانت تسمى من قبل « الكلية السورية الإنجيلية » ، ثم كلية بيروت وقد أنشئت عام ١٨٦٥ وهي جامعة بروتستنتية .

« والكلية الأمريكية بالقاهرة التي أصبحت فيما بعد « الجامعة الأمريكية » وقد كان القصد من إنشائها أن تكون قريبة من المركز الإسلامي الكبير وهو الجامع الأزهر .

« وكلية روبرت في « استانبول » التي أصبحت تسمى بـ « بالجامعة الأمريكية » هناك .

(١) انظر كتاب « أباطيل وأسار » للأستاذ محمود شاكر و « التبشير والاستعمار » للدكتورين مصطفى الخالدي وعمر فروح ص ٦٧ وما بعدها طبعة ثانية . وراجع أيضاً كتاب : « الغارة على العالم الإسلامي » تعريب الأستاذين مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب .

« والكلية الفرنسية فى « لاهور » وأسست فى لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامى الخالص فى تكوينه فى شبه القارة الهندية .

ومن المنشور الذى أصدرته الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٠٩ ، رداً على احتجاج الطلاب المسلمين - لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة - يتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها .

« ونص هذه المادة ما يلى :

« إن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي . هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية . وهم أنشأوا المستشفى وجهازه . ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ؛ ليجدوا تعليماً يكون الإنجيل من موارده . فنعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ .. وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يُطلب منه » !! (١) .

*

* المدارس الحديثة :

ثالثاً : طريق المدارس الحديثة ، التى تقوم فيها الدراسة على أسس غربية خالصة ، والتى أخذ الاستعمار يوجهها ويراقبها ، ويضع لها أهدافها ومناهجها التى يرضى عنها ، ويصنع لهذه الأهداف والمناهج الكتاب الذى يخدمها ، والمعلم الذى يتمثلها وينقلها من السطور إلى الصدور ، والإدارة التعليمية التى تشرف على تنفيذها .

وقد يكون هذا التوجيه والإشراف الاستعماري أمراً مكشوفاً مباشراً ، كوضع القسيس « دنلوب » الإنجليزى ، مستشاراً لوزارة المعارف فى مصر ، فى عنفوان

(١) من كتاب « المبشرون والمستشرقون فى موقفهم من الإسلام » ص ٩ ، ١٠ . للأستاذ الدكتور محمد البهى . وانظر : « التبشير والاستعمار » الفصل الرابع ص ٩٠ وما بعدها .

عهد الاحتلال البريطاني ، وقد يكون الإشراف من وراء الستار ، عن طريق القادة الذين صنعهم من قبل على طريقته ، وطبعهم على ما يحب ويرضى .

وقد حازت هذه المدارس المدنية رضا المبشرين وتأيدهم خفية وجهرًا ، رغم ما لها من طابع علماني ، وقرأنا لكثير منهم الثناء عليها والتشجيع لها .

يقول المبشر « جون تكللي » :

« يجب أن نشجع إنشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربى . إن كثيرين من المسلمين قد زُعِرَ اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الإنجليزية إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس أمراً صعباً جداً » (١) .

ومعنى هذا أنها تشكك أيضاً فى الإنجيل والتوراة ، التى يؤمن بها المبشرون ويدعون إليها فيما زعموا . فما الذى يفيد المبشرين إذا تزعزع اعتقاد الناس بالله والآخرة ، وتزلزل إيمانهم بالكتب المقدسة . لو لم يكونوا من عملاء الاستعمار ومطايه ؟!

وهذا يدلنا بوضوح على أن غاية هؤلاء المبشرين ليست دينية خالصة كما يظن بعض الناس ، وأنهم لا يرجون بعملهم هذا الله والدار الآخرة ، فلو كان هذا هدفهم لاتجهوا أول ما يتجهون إلى الملحدين والماديين الذين يكوّنون معظم السكان فى أوروبا . أو اتجهوا إلى الشعوب الوثنية ، بدل أن يتجهوا إلى أعظم أمة مؤمنة موحدة فى الأرض ، وهى أمة الإسلام .

ومما يؤكد هذا قول القس الشهير « زوير » فى وصاياه للمبشرين :

« ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء » .

(١) التبشير والاستعمار ص ٩٨

وليست علوم الأوروبيين مما نزل على المسيح ، ولا تحرير النساء - بالمفهوم الغربى - مما جاء فى الإنجيل الذى يقول : « مَنْ نَظَرَ بَعَيْنِهِ فَقَدْ زَنَى » .



● الهدف الاستعمارى من وراء التعليم :

لم يكن هدف الاستعمار التبشيرى ، والتبشير الاستعمارى من وراء هذه المؤسسات والأساليب إدخال المسلمين فى الديانة النصرانية . فقد وجدوا ذلك مستحيلاً . ولكن كان أكبر همهما زحزحة المسلمين عن الإسلام والاعتداد به ، والتكتل تحت لوائه ، وذلك بالتشكيك الخفى فى صلاحية الإسلام لقيادة الحياة المعاصرة ، وتنظيم المجتمع المتحضر ، وتوجيه الدولة الحديثة ، وبتشويه صورة الإسلام - شريعته وحضارته وتاريخه - فى أعين الناشئين ، وعزلهم عن الثقافة الإسلامية الأصيلة . مع إبراز وجه الحضارة الغربية جذاباً فاتناً ، ومبرراً من كل عيب ، منعوتاً بكل جمال وكمال .

كان همُّ الاستعمار والتبشير ألا يفكر المسلمون فى هذا الشرق بعقل المسلم الذى رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن منهجاً ، وبمحمد رسولاً ... بل بالعقل الذى صنعوه هم لهم ، وسجنوه فيه ، وراء قضبان محكمة ، غير منظورة .

وهذه هى الخطورة الكامنة فى نظام التعليم الذى فرضه الغرب على هذا الشرق . تلك الخطورة التى صرَّح بها بعض رجال الغرب أنفسهم . فهذا اللورد « ميكالى » الذى كان رئيساً للجنة التعليمية فى الهند سنة ١٩٣٥ ، وهى التى قررت جعل اللغة الإنجليزية أداة التعليم لأهل الهند ، بدل اللغات الشرقية الأخرى ، يقول فى تقرير له : « يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين الملايين من رعيتنا ، وستكون هذه الجماعة هندية فى اللون والدم . وإنجليزية فى الذوق والرأى واللغة والتفكير » ! (١) .

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للأستاذ أبى الحسن الندوى نقلاً عن « تاريخ

التعليم » لمؤلفه ميجر باسر ص ٨٠

ولقد أدرك المسلمون الواعون فى كافة البلاد الإسلامية هذه الخطورة ، ونددوا بها ، وأنكروا هذا التعليم أشد الإنكار .

فى شبه القارة الهندية نجد شاعراً إسلامياً مثل « أكبر حسين » الملقب بـ « لسان العصر » يحمل عليه حملة عنيفة ، بأسلوبه اللاذع ، فيقول فى بعض شعره ما ترجمته :

« يا لبلادة فرعون ، الذى لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد !! ولو فعل ذلك لم يلحقه العار ، وسوء الأحداث فى التاريخ » (١) .

وجاء بعد ذلك الدكتور إقبال الذى خاض لجة هذا التعليم ، وغاص فى أعماق بحاره ، ولكنه خرج سالماً إلى حد بعيد ، بل - كما قال الأستاذ الندوى - جاء معه بدرر كثيرة ، وازداد إيماناً بخلود الإسلام .

يقول إقبال : « إن التعليم (يعنى على الطريقة الغربية) هو « الحامض » الذى يذيب شخصية الكائن الحى ، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أى مادة كيميائية . هو الذى يستطيع أن يُحوّل جبلاً شامخاً إلى كومة من التراب » (٢) .



● موقف الأزهر فى مصر :

وكذلك وقف رجال الأزهر فى مصر من التعليم الغربى الحديث ، الذى فرضه المستعمر على المدارس الوطنية - موقف الجفاء والمعارضة ، لما رأوا فيه من بذور فكر غريب على الإسلام ، وثقافة مجافية لروحه وتعاليمه ، وتوجسهم شراً من كل ما يجىء على أيدي هؤلاء الكفرة المستعمرين .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٤

(١) المصدر السابق ص ١٨٣

وهذا ما جعل اللورد لويد - المندوب السامي لبريطانيا فى عهد الاحتلال - يشكو من هذا المعهد الناشز . الذى استعصى على سياسته الاستعمارية الماكرة . فلنسمعه يقول فى كتابه الذى ألفه سنة ١٩٣٣ :

« إن أهمية الأزهر - بوصفه مركزاً من مراكز الدعاية المعارضة لبريطانيا - كبيرة متعددة الإمكانيات . وقد أدرك الوطنيون ذلك ، فحاولوا استغلاله لتأييد مآربهم . وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الإنجليز على التعليم » .

ويرسم الطريق للتخلص من مقاومة هذا المعقل الإسلامى العتيد وتأثيره ، فيقول :

« إن التعليم الوطنى (عندما قدم الإنجليز إلى مصر) كان فى قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتى كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزاً فى طريق أى إصلاح تعليمى . وكان الطلبة الذين يتخرجون فى هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير .

« فلو أمكن تطوير الأزهر عن حركة تنبعث من داخله هو ، لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير أن نتصور أى تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة .

« ولكن إذا بدا مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً فى إصلاح التعليم اللادينى (المدنى) الذى ينافس الأزهر . حتى يتاح له الانتشار والنجاح .

وعند ذلك يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين :

« فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفى .

« على أن الخطوة الأولى - التى تقوم على إصلاح الأزهر من داخله - لها

نتيجة عظيمة الأهمية والفائدة . وإن لم تكن نتيجة مباشرة (أى فى اللقاء مع المستعمر الغربى) وهى أنها تؤدى بالتدرج إلى اختفاء التعصب الدينى الذى أحرَّ مصر (بحسب زعمه) زمناً طويلاً .

« أما الخطة الثانية (وهى الانصراف إلى التعليم المدنى) فإن تأثيرها المباشر (أى فى اللقاء مع المستعمر) أقوى فى إيجاد ما نحن فى أشد الحاجة إليه ، من إقامة العلائق الإنجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل » (١) .

ولما استعصى الأزهر على التطور المطلوب حينذاك ، كان لا بد أن يموت أو يختفى كما قال لسان الاستعمار فى مصر . وعُزِلَ الأزهر فعلاً عن الحياة ، وعُزِلَ خريجوه عن التأثير فى المجتمع ، ويُخسوا حقهم فى الوظائف والأعمال (٢) ، وشجع الاستعمار وأعوانه - بطرق خفية - الشيوخ الجامدين على دعاة الإصلاح المعتدلين .

واتسع نطاق التعليم المدنى - كما يسمى - تحت إشراف المستعمر وتوجيهه ، فتخرجت فيه أجيال لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، ولا من تاريخ المسلمين إلا الفتن والحروب .



● الوسيلة الثانية - الصحافة والإعلام :

ولم يقتصر نشاط الاستعمار الغربى على ميدان التعليم بمختلف طرائقه وأساليبه بل تعداه إلى ميدان آخر ، لا يقل خطراً عن التعليم - إن لم يزد عليه - ف قوة تأثيره وسعته .

(١) النص المنقول هنا من ترجمة الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه « الاتجاهات الوطنية » : ٢٨٨/٢ ، ٢٨٩

(٢) قرر اللورد « كرومر » المندوب السامى للاحتلال البريطانى فى مصر فى كتابه عن عباس الثانى ص ٦٧ : « أن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوروبية لا يصلح لحكم مصر ، كما أكد أن المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المترين تربية أوروبية » ! وهذا ما حرص الاستعمار على تنفيذه وما وقع بالفعل بكل دقة !!

ذلك هو ميدان « الصحافة » التى لا يقيدھا ما يقيد المدرسة من مناهج ورسميات ، ولا تختص بعدد محدود من التلاميذ . إنها وسيلة شعبية ناجحة تستطيع أن تغير بموضوعاتها وأساليبها العقول والأفكار ، والقيم والموازين ، وأن توجه الرأى العام إلى ما تريد من مفاهيم جديدة ، وأن تضعها فى الإطار المشوق وتحتال على الناس بتبشيتها فى فكر القارئ وقلبه ، بالمقالة حيناً ، وبالخبر أحياناً ، وبالصورة تارة ، وبالقصة تارة أخرى ، وباللقاءات والتحقيقات الصحفية . وبغير ذلك من الأساليب التى أتقنها المحترفون المهرة فى التضليل والتدجيل .

لقد أدرك المستعمرون ما لهذه الوسيلة من خطر ، فاستخدموها استخداماً ناجحاً فى غزوهم الفكرى المنظم لأمة الإسلام .

يقول مؤلفا « التبشير والاستعمار فى البلاد العربية » ^(١) نقلاً عن المصادر التبشيرية الأجنبية :

« إن الصحافة لا توجه الرأى العام فقط ، أو تهينوه لقبول ما يُنشر عليه بل هى تخلق الرأى العام .

« وقد استغل المبشرون الصحافة المصرية - على الأخص - للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر . لقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف إما مأجورة فى أكثر الأحيان أو بلا أجر فى أحوال نادرة » .

ويقول المستشرق الإنجليزى المشهور « جب » فى كتابه « وجهة الإسلام » متحدثاً عن أهمية الصحافة فى مجال الغزو الفكرى ^(٢) :

« والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفى . فليست هى فى حقيقة

(١) الطبعة الثانية ص ٢١٣

(٢) انظر : « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » ص ٢٠٢

الأمر إلا الخطوة الأولى فى الطريق ، لأنها لا تغنى شيئاً فى قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية . وللوصول إلى هذا التطور الأبعد - الذى بدونه تظل الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية - يجب ألا ينحصر الأمر فى الاعتماد على التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية ، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى خلق رأى عام ، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة » .

ويقرر « جب » : « أن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذاً فى العالم الإسلامى » .

كما يقرر : « أن مديرى الصحف اليومية ينتمون فى معظمهم إلى التقدميين » ! ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعاً تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية .

ويقول : « إنهم لا يلعبون دوراً مهماً فى تشكيل الرأى العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب . ولكن صحفهم تحتوى كذلك على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية فى أوروبا ، وعلى مقالات مترجمة من الصحف الأوروبية . ثم هم فى الوقت نفسه يقفون الرأى العام على ما يجرى فى الغرب من أحداث ، وما يستحدث من آراء ، مبينين صدى ذلك فى بلاد الشرق » .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك صحافة العالم الإسلامى مشيراً إلى ما بينها من فروق فيقول : « إن الصحافة التركية هى بطبيعة الحال وطنية لا دينية ، وهى لا تجرأ على أن تكون دينية ، لأنها مراقبة من الحكومة مراقبة شديدة ، أما الصحافة المصرية فهى على العكس من اتجاه الأولى الثورى - تتطور فى ببطء وتعرض طائفة من الآراء الجديدة ، وهى على كل حال لا دينية فى اتجاهها » .



● الوسيلة الثالثة - الغزو الاجتماعى :

وفوق هاتين الوسيلتين - وسيلة التربية والتعليم . ووسيلة الصحافة والإعلام - اتخذ الغرب الزاحف وسيلة أخرى ، هى الغزو الاجتماعى المباشر . بإدخال

العادات والتقاليد الغربية والأذواق الغربية فى حياة الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، واستغلال الوسيطتين السالفتين فى تحبيب ذلك إلى الأنفس . وإضفاء نعوت الرقى والتمدن على كل من ينسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية ، ويمشون فى ركاب غاصبيهم تابعين مقلدين حذوك النعل بالنعل .

يقول الشهيد حسن البنا فى تصوير هذا الغزو :

« وقد عمل الأوروبيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية بظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة جميع البلاد الإسلامية التى امتدت أيديهم إليها ، وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم ، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة ، وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعى إحكاماً شديداً ، واستعانوا بدعائهم السياسى ، وسلطانهم العسكرى ، حتى تم لهم ما أرادوا ، أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم والتعامل معهم وسهّلوا لهم ذلك وهوّنوه عليهم واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادى وأن يفرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم ، وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادى كما يريدون ، وأن يستأثروا - دون الأهلىن - بالأرباح الطائلة والثروات العظيمة ، وتمكنوا بعد ذلك من أن يغيروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم ، وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخاصة فى أقوى بلاد الإسلام ، وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات ، وخمورهم ومسارحهم ، ومراقصهم وملاهيهم ، وقصصهم وجرائدهم ، ورواياتهم وخيّالتهم ، وعبثهم ومجونهم ، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه فى ديارهم ، وزيّنوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التى تعج بالإنثم وتطفح بالفجور فى أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء وذوى الرأى فيهم وأهل المكانة والسلطان .

« ونجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم العنيف أعظم النجاح ، فهو غزو محبب إلى النفوس ، لاصق بالقلوب ، طويل العمر ، قوى الأثر ، وهو لهذا أخطر من

الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف . وتغالت بعض الأمم الإسلامية فى الإعجاب بهذه الحضارة الأوروبية والتبرم بصبغتها الإسلامية حتى أعلنت تركيا أنها دولة غير إسلامية ^(١) ، وتبعت الأوروبيين - فى عنف قاس - فى كل ما يصنعون ، وحاول ذلك « أمان الله خان » ملك الأفغان فأطاحت تلك المحاولة بعرشه ، وازدادت فى مصر مظاهر هذا التقليد واستفحلت ، حتى استطاع رجل من ذوى رأى فيها أن يجهر بأنه لا سبيل إلى الترقى إلا بأن نأخذ بهذه الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يُحَب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب . وأخذت تنتقل فى سرعة وقوة من مصر إلى ما جاورها من البلاد حتى وصلت إلى أقصى المغرب ^(٢) .



● نتائج وآثار :

كان الغرب الزاحف يقوم بكل هذا النشاط فى ميادين التعليم والتربية والصحافة والتوجيه ، والغزو الاجتماعى ، ولم يكن هناك على الجانب الآخر نشاط مثله يقابله ويقاومه ، فقد كان القائمون على الفكر الإسلامى فى أول الأمر ، يعيشون - إلا قليلاً منهم - فى فراغ وذهول عما يحيط بهم من أحداث العالم وتطوراته . كان الجمود قد شل تفكيرهم ، والجدل اللفظى قد التهم أوقاتهم وجهودهم ، والتقليد الذى أوجبوه على أنفسهم قد حرمهم من البحث فى حل لما يور به المجتمع من مشكلات ، وجواب لما يطرحه من أسئلة واستفتاءات .

(١) الواقع أن الشعب التركى المسلم لم يرض عن هذا الاتجاه ، بل قاومه مقاومة شديدة. ولكنه غلب على أمره بالحديد والنار ، وبمساعدة القوى الخارجية . وإنما الذى تبنى هذا الاتجاه فئة قليلة منحرفة استغلته الماسونية واليهودية العالمية والصليبية لتحطيم قلعة الإسلام المتمثلة فى الخلافة العثمانية ، التى كانت تمثل آخر مظهر للتكتل على أساس العقيدة الإسلامية .

(٢) من رسالة « بين الأمس واليوم » للشهيد حسن البنا .

ولما بدأوا يفيقون كان الاستعمار قد سدَّ في وجوههم الأبواب ، وجردَّهم من كل طاقة للعمل والتأثير ، ووضعهم في منجم مغلق لا يستطيعون أن يخرجوا منه إلى الناس والحياة .

كانت النتيجة المنطقية للغفلة هنا والنشاط هناك ، أن فتنت فئة من قومنا بالعدو الغاصب ، وولعوا بتقليده ولع المغلوب دائماً بتقليد الغالب ، وأصبحوا يستوحون في تفكيرهم وسلوكهم ، المثل الغربية ، والقيم الغربية ، والمفاهيم الغربية .

يتحدث الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله عن افتتان الشرقيين (وكانت هذه الكلمة تعنى المسلمين) بمظاهر الحضارة الغربية في مختلف نواحيها ثم يقول : « اجتمعت هذه الفتن كلها على الشرق (يعنى العالم الإسلامى) فزلزت إيمانه ، وحيرت وجدانه ، وأزاغت بصره ، وغزت عقله وقلبه ، بما أخذ عليه المسالك ، فأضلَّ الشرقيون أنفسهم ، فإذا هم أجساد تنبض بقلوب الغرب ، وتفكر بعقوله ، وإذا هم مستسلمون لكل ما تطلع به أوروبا ، منقادون لكل ما تأمرهم به ، متهافتون على كل ما اتصل بها ، ثم إذا هم أولاء مقلدون ، يحقرون أنفسهم وآباءهم وميراث حضارتهم وتاريخهم . إلا أن تعظم أوروبا أباً من آباؤهم أو تعجب بمأثرة من مآثرهم فيعتدوا بها .

« والخلاصة أن الشرقيين يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم ، كما يأخذون منسوجات القطن والصوف ، ومصنوعات الحديد والنحاس ، وأصناف الأحذية » (١) .

وقد كان المستشرقون المعنيون بهذا الشرق المسلم ، يراقبون هذا التأثير ومداه ومظاهره ، بكل يقظة ودقة ، فقد علموا أن عاقبته ليست بالأمر الهين فى سير الأمور ومجرى التاريخ .

(١) انظر الاتجاهات الوطنية : ١٩١/٢ - ١٩٣ . وهذا النص من مقال للكاتب فى ملحق « السياسة » الأدبى سنة ١٩٣٣

لنسمع واحداً من هؤلاء المراقبين الأيقاظ وهو البروفسور « جب » (١) يحدثنا عن ذلك فى كتاب « وجهة الإسلام » حيث يذكر عدة أمثلة ومظاهر خارجية لتأثير الغرب فى العالم الإسلامى ، يراها شيئاً ثانوياً غير ذى قيمة ، ثم يعقب على ذلك فيقول - وفقاً لترجمة الأستاذ الدكتور محمد حسين (٢) :

« الواقع أننا إذا أردنا أن نعرف المقياس الحقيقى للنفوذ الغربى ، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام ، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية ، علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة ، والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثير بالأساليب الغربية بعد أن تُهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان هذه الدول الإسلامية فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها » .

ويشير « جب » إلى أهمية التعليم والصحافة فى هذا الصدد فيقول :

« والسبيل الحقيقى للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، وعلى المبادئ الغربية ، وعلى التفكير الغربى .. الأساس الأول فى كل ذلك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، وعلى المبادئ الغربية ، وعلى التفكير الغربى . هذا هو السبيل ولا سبيل غيره » .

ولا شك أن « جب » قد قرأ عيناً بجريان التعليم فى العالم الإسلامى على ما يحب ويرضى من الأسلوب الغربى والمبادئ الغربية والتفكير الغربى ، وتأثير ذلك على عقول القادة والموجهين .

ثم ينتقل المستشرق إلى الحديث عن الصحافة وتأثيرها ، بما نقلناه عنه من قبل .

(١) كبير المستشرقين الإنجليز المعاصرين ، وكان مستشاراً لوزارة الخارجية البريطانية وعضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ومن كبار محررى دائرة المعارف الإسلامية ، وله كتب وبحوث عدة فى جوانب إسلامية ، فى كتابته عمق وخطورة . انظر رسالة « المبشرون والمستشرقون » للدكتور محمد البهى ص ٢٤

(٢) فى كتابه « الاتجاهات الوطنية » : ٢٠٢/١ وما بعدها .

يقول الدكتور محمد محمد حسين :

يلاحظ « جب » أن النشاط الثقافى والتعليمى (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك فى المسلمين - من غير وعى منهم - أثراً جعلهم يبدون فى مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ثم يعقب على ذلك بقوله : « وذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار » .

ثم يفصل الكاتب فى السطور التالية ما تنطوى عليه هذه الجملة القصيرة الخطيرة من دلالات . فيقول : « الواقع أن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه ، ولكن الإسلام - كقوة مهيمنة على الحياة الاجتماعية - قد فقد مكانه . فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه ، وهى - فى كثير من الأحيان - تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً ولكنها تشق طريقها ، بالرغم من ذلك ، إلى المجتمع الإسلامى بقوة وعزم .

« فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس ، وللِفلاح اتجاه سياسى ، ولم يكن له إلا الأدب الدينى . ولم تكن له أعياد إلا ما جاء به الدين . ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجى إلا بمنظار الدين ، كان الدين هو كل شىء بالقياس إليه . أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود وتعددت ألوان نشاطه الذى لم يعد مرتبطاً بالدين . فقد أصبحت له ميوله السياسية ، وهو يقرأ - أو يقرأ له غيره - مقالات فى مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين . بل إن وجهة نظر الدين لا تناقش فيها على الإطلاق . وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هى الفصيل فيما يعرض له من مشاكل ، ولكنه مرتبط فى المجتمع الذى يحيا فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها ، ولكنه يعرف - على كل حال - أنها ليست مأخوذة من القرآن . وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده فى حاجاته الروحية ،

فضلاً عن حاجاته الاجتماعية الأساسية ، بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعى انتباهه . وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً ، حتى انحصرت في طقوس محدودة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعى وانتباه ، وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين ، وكان الذين مضوا فيه عن وعى وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل ، وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد ، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه .

« وقد يبدو الآن من المستحيل - مع تزايد الحاجة إلى التعليم ومع تزايد الاقتباس من الغرب - أن يُصد هذا التيار أو يُعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية » .

ويتساءل « جب » : إلى أي مدى أصبح العالم الإسلامي غريباً ؟

ويجب على ذلك مستعرضاً نفوذ الثقافة الغربية في العالم الإسلامي بلداً بلداً . فيقول : « إن تركيا قد انقلبت إلى بلد غربي كأعنف ما يكون الانقلاب . أما في شبه جزيرة العرب فإن النفوذ الغربي لم يستطع أن يضع قدمه بعد - وفي شمال إفريقيا ، بدأت حركة التغريب وهي ماضية في طريقها وإن كان أثرها أبرز في تونس ، أما في مصر فهي تتطور في هدوء بعيد عن العنف ، ولكنها تتقدم تقدماً واضحاً في هذا الطريق . أما في العراق وسوريا فهي تتبع خطوات مصر ، بينما تتبع إيران خطوات تركيا ، وإن كانت أكثر منها اعتدالاً وتوسطاً . أما أفغانستان فقد تراجعت في هذا السبيل بعد تجربة الملك أمان الله خان الذي فقد فيها عرشه » .

ويمضي المؤلف على هذا النحو في تتبع ما أحدثت الحضارة الغربية بين المسلمين في روسيا السوفييتية وفي الهند وفي أندونيسيا وفي إفريقيا . ويخلص من ذلك إلى أن نجاح التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الإسلامي وعلى الشباب منهم خاصة .

ثم يقول : « ومن ثمَّ نستطيع أن نقول - حسب سير الأمور - إن العالم الإسلامى سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينياً فى كل مظاهر حياته ، ما لم يطرأ على الأمور عوامل ليست فى الحسبان فتغير اتجاه التيار » .

* * *

● الدعوة إلى التغرّب :

كان للغزو الفكرى الغربى المنظم المخطط ، الذى تساندت فيه كل القوى الاستعمارية واستخدمت فيه كل الوسائل والأساليب - آثاره ونتائجه الخطيرة فى حياة المسلمين ، تلك الآثار التى بدأت تبرز وتتسع يوماً بعد يوم .

صحيح أن الفكر الاستعمارى لم يستطع أن ينفرد تماماً بالتوجيه ، وأن يستقل استقلالاً مطلقاً بالتأثير ، فقد كان الفكر الإسلامى المتغلغل فى أعماق الأمة يتحداه ويقاومه على الرغم من ضعف إمكاناته ، ومن تضيق الخناق عليه . إلا أن الغلبة والتأثير الأقوى والأوسع كان للفكر الدخيل ، المسلح بالدهاء والمكر ، وبالعلم والمال ، والمستند إلى سلطان القوة ، وقوة السلطان ، والذى كان يملك فى قبضته أجهزة التعليم ووسائل الإعلام . وكان أخطر نتائجه ولا شك هو شيوع التبعية الفكرية للغرب ، والعبودية الدليلة لكل ما يصدر عنه من مبادئ وقيم ، ومناهج وأنظمة ، وأخلاق وتقاليد ، وأفكار ومفاهيم .

وكان من مظاهر هذه العبودية بروز أناس يدعون إلى اتباع الغرب فى كل شأن من شئون حياته الفردية والأسرية والاجتماعية ، المادية والروحية والثقافية .

وبرز من بين ظهرانى المسلمين مَنْ يدعو - فى صراحة حيناً ، وبالتواء أحياناً - إلى أطراح الإسلام ، وشريعة الإسلام ، وثقافة الإسلام ، وحضارة الإسلام .

رأينا ذلك فى الهند ، ورأيناه فى تركيا ، ورأيناه فى مصر ، وفى غيرها من بلاد العرب والإسلام .

رأينا فى الهند مثل السيد أحمد خان مؤسس الكلية الإسلامية الإنجليزية -

التي سميت فيما بعد جامعة « عليكره » - يدعو إلى السير وراء الحضارة الغربية وأخذها بحذافيرها ، وقال : إن لا بد للمسلمين أن يقبلوا حضارة الغرب بتمامها ، حتى يُعدوا في الشعوب المتمدنية والثقفة ، ولا تزدريهم أعين الأمم المتحضرة !

لم يدع أحمد خان إلى اقتباس الجانب العلمي الصناعي من حضارة الغرب ، الذي هو سر قوة الغرب ومبعث نهضته وتقدمه . وهو الجانب الذي كانت تحتاج إليه الهند وغيرها من البلاد الإسلامية ، بل كان أكثر ما عنى به ودعا إلى تعلمه وأخذ هو الجانب الآخر من الحضارة : جانب الآداب والعلوم الاجتماعية . حتى إنه في بعض الأحيان عارض تعليم الصناعات والعلوم معارضة شديدة ، وكتب في هذا الموضوع مقالات عنيفة باللهجة مريرة النقد « !! (١) .

ورأينا في تركيا مثل « ضياء كوك ألب » الأديب التركي الذي يعتبر أحد المؤسسين الفكريين لتركيا الحديثة يقول : « علينا أن نختار إحدى الطريقتين : إما أن نتقبل الحضارة الغربية ، أو نظل مستعبدين لقوى الغرب ، لا بد أن نختار أحد الأمرين » .

وإننا لنعجب من هذا المنطق الذي يقول للأمة : انسلخي من دينك وتاريخك وشخصيتك حتى لا تُستعبدى للأجنبي ، وأى استعباد أشد وأدهى من انسلاخها من ذاتيتها ، واتباعها لهذا الأجنبي نفسه ، وذوبانها فيه ؟

ولو كان مفكراً أصيلاً ، ما رضى لنفسه ولا لأمتة بالتبعية والانصهار في خصومها الطامعين فيها ، ولو كان مسلماً حقاً لرفض كل منهج غير منهج الله الذي هدى إليه أمتة ، ولم يقبل أن يبيع دينه ومِلّته ليتبع مِلّة اليهود أو النصارى ، فيرضوا عنه ، ويشنوا عليه .

(١) انظر في تقويم حركة أحمد خان : الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص ١٩ -

٢٥ ، والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٨٢ - ٩٢

وما أروع القرآن وهو يجلى هذا الموقف إذ يقول :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ..

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢) ..

ومن العجب أن دعاة التبعية والتقليد للغرب كانوا يُسمَّون أو يُسمَّون أنفسهم « المجددين » وتسمى حركتهم حركة التجدد أو « التجديد » وكانت المعركة الفكرية بين دعاة الجديد ودعاة القديم على أشدها فى تركيا وفى العالم العربى . وكان لحركة التجديد فى مصر مظاهر كثيرة .

وكانت أكثر مظاهر الحركة تطرفاً ما كانت ترويه الصحف عما يجرى فى تركيا باسم تجديد الإسلام ، فى عهد الإتحاديين ثم فى عهد الكماليين أو « الإسلام الجمهورى » ، كما سمته بعض الصحف .

ومن أمثلة ذلك : ما ذكرته مجلة « المنار » (٣) عن بعض ما جاء فى كتاب « قوم جديد » التركى من اعتبارهم الصلاة والصيام والحج والزكاة والعمل بفقهِ الأئمة الأربعة ، هو دين قدماء المسلمين ، الذين يُعبَّر عنهم الكتاب بكلمة « قوم عتيق » . فى مقابل ذلك يصف الكتاب أركان دين « قوم جديد » وهى : العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة ، والجهاد (تحت قيادة رجال جمعية الاتحاد والترقى) !

وما زال الخرق يتسع ودعاة التبعية للغرب يرتفع صوتهم ويمتد نفوذهم ، ويكتبون عن أفكارهم بكل صراحة ، بل بكل وقاحة .

(٣) عدد شوال سنة ١٣٣٤ هـ .

(٢) البقرة : ١٢٠

(١) البقرة : ١٣٥

كان من أبرز الذين دعوا - فى العالم العربى - إلى تقليد الغرب واتباع مناهجه فى الخير والشر الدكتور طه حسين فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » .

فهو يرى فى هذا الكتاب أن سبيل النهضة « واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء . وهى أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ونكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرّها ، وما يُحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب » ^(١) . « وأن نُشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها » ^(٢) .

وهذه الدعوة فى الحقيقة ليست إلا ضرباً من « التأليه » للأوروبيين بحيث نحلّ ما أحلّوا ، ونُحرّم ما حرّموا ، ونُحسّن ما حسّنوا ، ونُقَبّح ما قَبّحوا !

وهو يزعم فى كتابه أن المسلمين فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة ، وهو « أن السياسة شىء ، والدين شىء آخر ، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية ، قبل أن يقوموا على شىء آخر . وهذا التصور هو الذى تقوم عليه الحياة الحديثة فى أوروبا ، فقد تخففت أوروبا من أعباء القرون الوسطى ، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ، ولا على تقارب اللغات والأجناس » ^(٣) .

ويقول : « فأما الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسننا أنفسنا ، واستشعرنا العزة والكرامة واستيقنا أنه ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق فى الجوهر ، ولا فى الطبع

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ، فقرة ٩ ص ٤١ (٢) المصدر السابق ص ٤٤

(٣) المصدر نفسه ص ١٧ ، ١٨

ولا فى المزاج ، فإننى لا أخاف على المصريين أن يفنوا فى الأوروبيين !! (١) .
وهكذا بلغت الدعوة إلى حد الفناء فى الأوروبيين .



● النصارى أجهر بالدعوة إلى التغرب الكامل :

وقد دعا إلى سلوك هذا السبيل نصارى ومسلمون ، ولكن النصارى كانوا
أسبق وأصرح وأجراً ، ولعل أبرز مثال لهؤلاء هو الكاتب المصرى المسيحى
المعروف « سلامة موسى » الذى كتب فى هذا الموضوع عدة مقالات نشرت فى
خلال سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ثم نشرها فى كتاب « اليوم والغد » بعد أن
أضاف إليها مقالين آخرين سنة ١٩٢٧ ، يقول المؤلف فى مقدمة كتابه بكل
وضوح : « أنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب . يجب علينا أن نخرج من آسيا
وأن نلتحق بأوروبا » ومعلوم أن مصر ليست من آسيا ، ولكنه يريد الخروج من
ثقافة الإسلام وحضارته وتعاليمه التى جاءت من آسيا .

يريد الكاتب « حرية المرأة كما يفهمها الأوروبي » ، كما يريد من
الأدب « أن يكون أدباً أوروبياً ٩٩٪ » . ويريد من التعليم « أن يكون
أوروبياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه » ويقول : « نحن فى حاجة إلى
ثقافة أبعد ما تكون عن الأديان ولا بأس أن تعتمد على الترجمة إلى حد بعيد » .

وهو يريد أن يعطل شريعة الإسلام فى تعدد الزوجات وفى الطلاق « بحيث
يُعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة ، ويُمنع الطلاق إلا بحكم
محكمة » !!

وهو ينكر أشد الإنكار كل دعوة تنادى بالتعاون أو التقارب بين المسلمين ،
وتوثيق الروابط بينهم كما أمر الله ، ويقول فى ذلك بكل جرأة : « إن الرابطة

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ، المصدر السابق ص ٦٣

الدينية وقاحة ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا « ؟؟ »

والخلاصة أنه يدعونا إلى أن « نرتبط بأوروبا وأن يكون رباطنا بها قوياً ، نتزوج من أبنائها وبناتها ، ونأخذ عنها كل ما يَجِدُ فيها من اختراعات أو اكتشافات وننظر للحياة نظرتها ، وأن نتطور معها فى تطورها الصناعى ، ثم فى تطورها الاشتراكى والاجتماعى ، ونجعل أدينا يجرى وفق أدبها بعيداً عن منهج العرب ، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتنا » .

ومن العجب أن يقول المؤلف فى صراحة يُحسد عليها : « إن الأجانب يحتقروننا بحق ونحن نكرهم بلا حق » .

وهو يدعو فى غير موارد إلى التعاون والاتفاق مع المستعمرين والمحتلين الإنجليز وهدفه من ذلك تصفية الرجعية فى مصر ، ويعنى بالرجعية - ولعله أول من استخدم هذه الكلمة - القوة الإسلامية - كالأزهر الذى يمثل بقايا الثقافة الإسلامية ، والمحاكم الشرعية التى تمثل بقايا القوانين الإسلامية ، والأوقاف والمساجد التى تمثل بقايا التقاليد والعبادة الإسلامية ، والجماعات العاملة التى تمثل التطلع إلى دولة إسلامية ووحدة إسلامية وحضارة إسلامية .

يقول المؤلف الجرىء : « إننا إذا أخلصنا النية مع الإنجليز قد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم ، وهم فى الوقت نفسه إذا أخلصوا النية ، فإننا نقضى على مراكز الرجعية فى مصر وننتهى منها ، فلنول وجهنا شطر أوروبا » (١) .

ومثل « سلامة موسى » زميل له من نصاري لبنان ، لا يقل عنه جرأة أو وقاحة ، ذلكم « جميل معلوف » الذى يقول فى كتابه « تركيا الجديدة » ما نصه : « إن خلاص الشرق يتوقف على تفرنج الشرقيين بكل معنى الكلمة » (ص ٣٤) .

(١) للاستيضاح والتفصيل راجع « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : ٢٠٧/٢ - ٢١٣ ، وعنه نقلنا الفقرات المذكورة .

« لا عهدة شرعية تربطنا بأسلافنا .. يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا
الأمس . كل جيل يجب أن يعمل لذاته وكل سلالة يجب أن تشرع لنفسها »
(ص ٤١) .

« واستناد الشرقيين على الدين فى أحوالهم العالمية عمل عقيم يبعدهم عن
محجة التقدم ، لا بل إننى أجد بلاء الشرق كله من الأديان ، ومصيبة الشرقيين
من الأنبياء » !! (ص ٩٦) .

« وعلى كل حال فإذا اضطرت أن أختار لأبناء وطنى واحداً من أمرين :
الكفر أم التعصب ، فأختار لهم الأول ، به يتوحد مبدؤهم ، فيكسبون الدنيا
على الأقل » (ص ٩٨) .

« ولا بد أن يعقب هذا الانقلاب (أى الانقلاب الذى أطاح بالخلافة
الإسلامية) السياسى الصغير ثورة أدبية عظيمة ضد المبادئ القديمة كلها .
فيثور الابن على أبيه ، والمرأة على زوجها ، والخادم على سيده ، والرعية على
كاهنها وشيخها ، ورجال الدين على كتبهم » (ص ١١٢) .

« إن فصل الدنيا عن الدين أمر واجب لتقدم الشرق ، وبدونه لا يستطيع
الشرقى أن يدخل فى دائرة المدنية ويتمتع بنفس الحرية الحقيقية » (١)
(ص ١٤١) .



● مناقشة دعوة التغريب :

هذه هى دعوة عبيد الغرب من مسلمين ونصارى . دعوة التبعية المطلقة
للحضارة الغربية ، والذويان الكامل فيها ، وأخذ كل شىء منها ، واستمداد كل
قيمة ، وكل مفهوم ، وكل نظام ، وكل تقليد منها : الخير والشر ، والحلو والمر ،
والعلم والأدب ، والمادة والفكر ، والتصور والسلوك .

(١) انظر : « تركيبا الجديدة » لجميل معلوف .

لم يفرّق هؤلاء بين ما يصح اقتباسه وما لا يصح ، وما يجوز استيراده وما لا يجوز . ولو أنهم نادوا باقتباس الجانب « العلمى » المحض ، الذى ينشأ عنه رقى الصناعة وزيادة الإنتاج ، ونمو العمران . وازدهار الحياة المادية ، ما رأينا بذلك بأساً ولا حرجاً ، فإن العلم المحض - بطبيعته - عالمى لا دين له ولا جنسية . ومن انتفع بقانون أرشميدس لم يكن به يونانياً ، ومن أخذ بنسبية آينشتاين لم يصر أمريكياً أو رأسمالياً ، ومن اقتبس قانون الجاذبية لإسحاق نيوتن لم يصبح به إنجليزياً أو استعمارياً ، كما أنه من اقتبس نظريات ومكتشفات جابر بن حيان فى الكيمياء أو الخوارزمى فى الجبر أو البستاني فى علم المثلثات لم يصر بذلك عربياً ولا مسلماً !

إن الولايات المتحدة الأمريكية التى تترع على قمة الرأسالية . والاتحاد السوفييتى - البلاد الأم للاشتراكية العلمية - كل منهما قد استفاد من خبرة خصومهم ومحاربهم الألمان فى بحوث الذرة والفضاء بعد الحرب العالمية الثانية . وأصبح العلم الذى خدم النازية الألمانية من قبل ، يخدم الرأسالية الأمريكية والشيوعية الروسية . وها هى كلتاهما تحاول أن تخطف الأسرار العلمية أو تختلسها من الأخرى إذا استطاعت ، ولا ترى فى ذلك خطراً ولا ضيراً . أما الذى تقف كلتاهما فى وجهه ، فهو الاتجاهات الثقافية والأدبية التى تحمل فلسفة كل من البلدين ، وتُعبّر عن وجهته فى الحياة ، ونظرته إلى الفرد والمجتمع والكون والتاريخ .

لا حرج ولا بأس إذن من اقتباس العلم الطبيعى والرياضى ونحوه . وإنما الحرج والبأس فى اقتباس الثقافة والتقاليد ، والأفكار والمفاهيم . والقيّم والموازن ، التى تتميز بها كل أمة عن غيرها . بل الواقع أننا حين نقتبس الجانب العلمى من الغرب لا نفعل شيئاً إلا أننا نسترد بضاعتنا . فنحن أصحاب هذا العلم وأولى الناس به . فقد أخذ الغرب أصول هذا العلم ومنهجه منا كما اعترف بذلك بريقولت ودوهرنج ولويون وسارتون وغيرهم من الدارسين الغربيين المنصفين .

* * *

فشل الليبرالية الديمقراطية في بلادنا

• الاتجاه الليبرالى الديمقراطى يسود ديارنا :

كان الاستعمار الغربى يسيطر على البلاد الإسلامية ، وكان بالطبع هو الذى يختار حكامها أو يوجههم ، ويدير دفة الأمور على ما يريد ، مباشرة أو من وراء ستار .

ولهذا سار الحكم فى هذه البلاد فى الاتجاه الليبرالى الديمقراطى الرأسمالى الغربى ، الذى يؤيده الاستعمار المتسلط . كما تؤيده جمهرة المثقفين الذين تعلموا على يديه ، والذين رأوا أن هذا النظام الجديد يحمل معانى التقدم والحرية والتطور والتجدد ، ويقاوم الجهل والجمود ، والتخلف والاستبداد ، الذى اتسمت به عصور الانحطاط السابقة .

ولم يُتح لهم من العلم النافع ما يعرفون به حقيقة دينهم « الإسلام » الذى يؤمنون به اعتقاداً ، ويجهلونه شريعة ونظاماً ، وفلسفة وحضارة . كما لم يكن لديهم من دوافع الرغبة فى معرفته ما يجعلهم يطلبون العلم به عند أهل العارفين به ، وقليل ما هم . فإن الولع بتقليد الغرب المتفوق الغالب ، سدّ عليهم كل منافذ المعرفة أو الرغبة فيها ، شأن المغلوب مع الغالب ، والضعيف مع القوى ، كما قال حكيم المؤرخين ابن خلدون .

وكانت هذه الفئات التى تخرّجت على أيدى الثقافة الغربية هى أعمدة الحكم الليبرالى وأسناده ، وأنصار نظامه ودعاته .

ومعظم هؤلاء من أبناء الطبقات الأرستقراطية ، والأسر الغنية التى كان باستطاعتها أن تنفق على أبنائها ليتعلموا فى الداخل ، أو يُبعثوا إلى الخارج .

لقد فرض الاستعمار النظام الليبرالى الديمقراطى العلمانى - من فوق - بحكم سلطانه ، ولم يكن للشعب فى ذلك اختيار ولا مدخل .

ولقد تم هذا التحول بهدوء ، ولم يكن هناك ضرورة لإعلان ، كإعلان سلامة موسى ، ولا إلى دعوة كدعوة طه حسين ، فقد كانت الأمور تجري فى طريق « التغريب » بلا ضجيج .

كل ما فى الأمر أنه كان هناك « قديم » معزول يخشى أن يقوى بأسه ، ويشتد جانبه ، ويخرج إلى الحياة داعياً مجاهداً من جديد . فارتفعت هذه الأصوات تريد القضاء على كل قديم ، وتسد الطريق على كل داعية للعودة إلى نظام الإسلام وفكرة الإسلام .

* *

● آثار هذا الاتجاه فى الحياة الإسلامية :

وكان من آثار هذا الاتجاه الليبرالى الديمقراطى الغربى الذى ساد بلادنا ، أن قامت حياة المجتمع على عدة أشياء تُعد هى العناصر والمقومات التى تُميّز هذا الاتجاه وتشخصه .

ولكن قبل ذلك يلزمنا أن نسأل : ما معنى الليبرالية الديمقراطية ؟

إن هذه كلمات أوروبية الأصل ، ولهذا لا نبحث عن معناها فى لغة العرب ، وإنما نبحث عنها عند الأوروبيين أنفسهم : ماذا يعنون بها ؟

يَبْدُ أن أمثال هذه الكلمات التى تدل على مفاهيم عقائدية ليس لها مدلول واحد محدّد عند الأوروبيين . لهذا تُفسّر فى بلد بما لا تُفسّر به فى بلد آخر ، وتُفهم عند فيلسوف بما لا تُفهم به عند غيره ، وتُطبّق فى مرحلة بما لا تُطبّق به فى أخرى .

ومن هنا كان اختلاف التعريفات لهذه المفاهيم ، وكانت الصعوبة فى وضع تعريف منطقى جامع مانع يحدد مدلولها بدقة .

حتى اشتقاق كلمة « ليبرالى » نفسها اختلفوا فيه : هل هى مأخوذة من كلمة « ليبرتى » التى معناها الحرية - كما هو مشهور - أم هى مأخوذة من أصل أسبانى ؟

وعلى أية حال يبدو أن الليبرالية التى شاعت فى بلادنا العربية أول الأمر هى الليبرالية الإنجليزية . وهى التى أمكن أن يحددها بعضهم بـ « ليبرالية الوكز » وهى التى أوضحها « جون لوك » ، وطورها الاقتصاديون الكلاسيكيون ، وهى ليبرالية تركز على مفهوم التحرر من تدخل الدولة فى تصرفات الأفراد . سواء أكان هذا فى السلوك الشخصى للفرد أم فى حقوقه الطبيعية أم فى نشاطه الاقتصادى (أخذاً بمبدأ دعه يعمل)^(١) والظاهر من تاريخ الليبرالية أنها كانت رد فعل لتسلط الكنيسة والإقطاع فى العصور الوسطى بأوروبا ، مما أدى إلى انتفاضة الشعوب وثورة الجماهير ، وبخاصة الطبقة الوسطى والمناداة بالحرية والإخاء والمساواة ، كما وضع ذلك فى الثورة الفرنسية . وإن كان قد تبين بعد أن هناك قوى خفية هى التى حركت هذه الثورة وغيرها من الثورات^(٢) .

أما « الديمقراطية » فهى لفظة يونانية قديمة تعنى « حكومة الشعب » أى حق المجموع فى تقرير المسائل العامة ، وما يجب اتخاذه بصدها . غير أن المشاركة المباشرة من التقرير حسب النمط الإغريقى القديم (دولة المدينة) أمر متعذر إلا فى الوحدات الصغيرة والبسيطة . ولهذا تطور مفهوم « الديمقراطية » على مرَّ العصور حتى استقر فى الفقه الغربى الحديث لكى يعنى : « النظام السياسى الذى من شأنه تعيين أعضاء الهيئة الحاكمة بواسطة الشعب ، بوصفه مصدر كل سلطة »^(٣) .

(١) المصطلحات السياسية : لموريس كرانستون ص ٤٦

(٢) انظر : الدنيا لعبة إسرائيل .

(٣) انظر : المرجع الأسبق ص ٣٦ - ٣٨ و « فلسفتنا السياسية الثورية » للدكتور محمد طه

بدوى ص ١٢٢

ونظراً لأن بعض الدارسين يفصلون بين مفهوم الليبرالية ومفهوم الديمقراطية ، فقد آثرتُ أن أضيف وصف « الديمقراطية » إلى وصف « الليبرالية » لبيان الاتجاه الذى أتحدث عنه هنا ، والذى ساد البلاد العربية قبل عهد الثورات العسكرية ^(١) . فهو اتجاه ليبرالى ديمقراطى رأسمالى (فنحن مع الذين يستعملون هذه التعبيرات بمعنى واحد تقريباً ، ويذهبون إلى أنه لا يمكن الفصل بينها الآن) ^(٢) وهو فى نفس الوقت اتجاه علمانى وطنى أو قومى . وهو فى بدايته ونهايته اتجاه دخیل ، يتخذ الغرب قبْله له وإماماً فى جل شئون الحياة ، وعلى هذا الأساس نتحدث عن عناصره ومقوماته كما طُبِّقت فى ديارنا .

أهم هذه العناصر والمقومات هى :

- ١ - العلمانية ، بمعنى فصل الدين عن الدولة .
 - ٢ - النزعة الوطنية والقومية .
 - ٣ - الاقتصاد الرأسمالى والإقطاعى .
 - ٤ - الحرية الشخصية - بالمفهوم الغربى - وخاصة حرية المرأة فى التبرج والاختلاط .
 - ٥ - التمكين للقوانين الأجنبية الوضعية .
 - ٦ - ظهور الحياة النيابية البرلمانية وإعلان أن الأمة مصدر السلطات .
- وكان لهذه العناصر أثرها البارز فى حياتنا العربية والإسلامية : المادية والروحية ، الفكرية والسلوكية ، الفردية والاجتماعية . كما سيتضح ذلك فيما يلى من صحائف هذا الفصل .

(١) ولا زال يسود بعضها أيضاً إلى اليوم .

(٢) انظر : القومية والمذاهب السياسية للدكتور عبد الكريم أحمد - ص ١٣٧

١ - العلمانية

العلمانية هي أول عناصر الاتجاه الليبرالى الديمقراطى الذى ساد حياة المسلمين بتأثير الاستعمار . وكان ذلك أخطر النتائج ، وأعمق الآثار التى حفرها الاستعمار ، وخلفها من بعده : عزل الإسلام عن الدولة ، وعن توجيه الحياة العامة ، وعن قيادة المجتمع .

وبعبارة أخرى : العمل على سيادة المفهوم الغربى لما يسمى ديناً ، وما يسمى دولة ، وتأكيد الفصل بينهما فكرياً وعملياً فى كل بلد دخله الاستعمار ، واصطناع الهوى السحيقة بينهما ، حتى لا يعود فى يوم قريب إلى الدين سلطانه ، فيسيطر على الدولة ويوجهها .

يقول « هانوتو » المستشرق الفرنسى ، ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية فى مقاله الذى ترجمته جريدة « المؤيد » المصرية ، ونشرته سنة ١٣١٧ هـ (١) :

« إن الإسلام دين وسياسة : وإن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة الوطنية ، فالوطن عندهم هو الإسلام ، وهم يقولون : إن السلطة مستمدة من الألوهية ، فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون » .

ثم أشار « هانوتو » إلى نجاح فرنسا فى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى تونس ، وقال : « إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحذق ، دون أن تثير ضجيجاً أو تدمراً ، فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس (!) وتسربت الأفكار الأوروبية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان المحمدى (يعنى المسلم) وبذلك انفصل الحبل بين هذا البلد والبلاد الإسلامية الأخرى ، الشديدة الاتصال بعضها ببعض » .

ودعا « هانوتو » فى آخر مقاله إلى أن تُتخذ تونس مثلاً يُقاس عليها ، ونموذجاً يُنسج على منواله .

(١) انظر المقال كله فى « تاريخ الأستاذ الإمام » للسيد رشيد رضا : ٤٠١/٢ - ٤١٤

وكان أول مَنْ استجاب لدعوة « هانتو » وأمثاله من الحاقدين على الإسلام هو « كمال أتاتورك » مؤسس تركيا الحديثة ! فهو الذى تبنى الليبرالية الغربية بكل عناصرها : بخيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وإيمانها وكفرها - إن كان عندها إيمان - كما نادى بذلك الدكتور طه حسين من بعد . يقول المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » :

« ولم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم (الذى ينص على أن الإسلام دين الدولة) بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامى (الخليفة) وألغت منصبه (أى الخلافة) وجردت رجال الدين المسلمين ، وحلت منظماتهم ، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة ، واستنكرت كل ما يرمز إليه الحجاب ، وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات ، التى تمنع لابسها عن أداء شعائر الصلاة الإسلامية التقليدية ، وخاصة السجود . وكنتست ^(١) الشرعية الإسلامية بأكملها ، وتبنت القانون المدنى السويسرى بعد أن ترجمته إلى التركية ، وطبقت قانون الجرائم الإيطالى ، وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما فى المجلس الوطنى ، وغيّرت الأحرف العربية بأحرف لاتينية . وهذا أمر لا يتم إلا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبى العثمانى القديم . وأهم وأشجع تغيير قام به أولئك الثوريون فى تركيا هو ما قدّموه للشعب من قيم ومثل اجتماعية جديدة » !! ^(٢) .

وقاوم الشعب التركى هذا الاتجاه ، ودافع عن شريعته . ولكن سلطان القوة المؤيدة من الخارج كان أغلب .

على أن « العلمانية » الدخيلة لم تستطع فى أكثر البلدان العربية والإسلامية أن تكتسب لنفسها - من الناحية النظرية - الصفة الشرعية والدستورية ، كما

(١) كما هى الترجمة الحرفية لتعبير المؤلف !

(٢) من بحث « الإسلام والغرب والمستقبل » وهو يضم محاضرتين لتوينبى ، عربيهما الدكتور

نبيل صبحى ، نشر دار العروبة ص ٧٠ .

اكتسبتها فى تركيا بحد السيف ، ولم يستطع الحكام والزعماء « المتغربون » - ومن ورائهم القوى الاستعمارية والماسونية وغيرها - أن يظفروا بهذا الحق - حق الشرعية - على الصعيد الرسمى ، لأن حس الجماهير المسلمة الذى آمن إجمالاً بأن الإسلام دين الحياة ، وأن شريعته صالحة لكل زمان ومكان - كان يفرض إبعاد الإسلام عن الدولة ، ويرى فى ذلك مروقاً وخيانة لله ولرسوله ولجماعة المسلمين .

ولهذا لم تملك القوى الماكرة إلا أن تنحنى لرغبة الأغلبية الإسلامية ، وترضيها نظرياً بالنص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، كما فى الدستور المصرى وغيره من الدساتير .

وأما من الوجهة العملية فقد سار الحكم فى طريق العلمانية ، تشريعاً وتوجيهاً وتثقيفاً ، وعمل القادة والزعماء - الذين « علمتهم » الغزو الثقافى من قبل - على علْمنة الأفكار والمشاعر والأوضاع ، بحيث حصر الدين فى المساجد ، وبعض زوايا الحياة التافهة ، وفُرض على الشرق المسلم مفهوم الغرب المسيحى للدين : أى أنه مجرد علاقة بين المرء وربّه ، وشاعت فى الناس كلمات غامضة مضللة مثل : « الدين لله والوطن للجميع » ^(١) .

وقام النظام التعليمى العام فى المدارس والجامعات على هذا الأساس ، كما قام التثقيف العام عن طريق الكتب والصحافة والإذاعة وغيرها على هذا النهج . وبذلك ثبت المفهوم الاستعمارى الدخيل الخبيث : أن الدين لا شأن له بالسياسة ، وأن الدولة لا علاقة لها بالدين .

وأصبح أكثر الجماعات الإسلامية ينص فى نظامه الأساسى على أن الجماعة لا تتدخل فى السياسة ! وحين اشتغلت إحدى الجماعات الإسلامية بالسياسة ،

(١) أما غموضها فلأننا لو عكسنا وقلنا : الدين للجميع والوطن لله ، أو قلنا : الدين لله والوطن لله . أو قلنا : الدين للجميع والوطن للجميع . ما كان فى أى من هذه العبارات جناح . أما تضليلها فلأن مفهومها يشعر أن التمسك بحكم الإسلام يناهى المواطنة للجميع وهو إفك مبين .

ودعت إلى الحكم الإسلامى ، والدولة المسلمة ، كان أول ما اتهمت به : أنها خلطت الدين بالسياسة !!

كأن الرسول ﷺ لم يقل : « مَنْ لَقِيَ اللَّهَ ، وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ لِإِمَامٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةٍ » ^(١) . ولم يقل : « مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ » ^(٢) .

وكان هو نفسه - صلى الله عليه وسلم - صاحب دين ومؤسس دولة . وكذلك كان خلفاؤه من بعده .

لقد أصيب المجتمع الإسلامى بهذا « الفصام النكد » الوافد من الغرب المسيحى . فانقسم النظام التعليمى فى بلد كمصر - وفى معظم البلاد الإسلامية أيضاً - إلى نوعين من التعليم : تعليم دينى يمثله الأزهر الشريف وما يتبعه من المعاهد . وتعليم مدنى أو علمانى لا يلتزم بالثقافة الإسلامية ، بل لا يهتم بها ، وتمثله الجامعات ومدارس الدولة بصفة عامة .

ولا ريب أن تصبح بين النوعين فجوة فكرية ونفسية ، نتيجة اختلاف لون الثقافة ووجهتها وروحها لدى كل منهما .

وفى مجال التشريع والقضاء وُجِدَ هنا انقسام آخر بين القوانين الشرعية والقضاء الشرعى ، الذى حُصِرَ فى زاوية « الأحوال الشخصية » من الزواج والرضاع والطلاق والميراث وما إليها ، وبين القوانين الوضعية التى استوعبت معظم شئون الحياة والتشريع لها ، فهى تشمل كل ما عدا الأحوال الشخصية من القوانين المدنية والتجارية والجنائية والإدارية والدولية ، وكل ما ينظم العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

وبهذا وُجِدَت محاكم شرعية ، ومحاكم مدنية أو أهلية ، وقاض شرعى ، وقاض مدنى . وهو أمر لم يعرفه المسلمون قط قبل ذلك .

ومن نتيجة هذا الانقسام تسمية بعض الناس « رجال الدين » فى مقابل

(٢) رواه الحاكم وصححه وخالفه الذهبى .

(١) رواه مسلم .

تسمية آخرين بـ « رجال الدولة » أو « السياسة » أو « العلم » ، مع أن الفكر الإسلامى لا يعرف فكرة « رجال الدين » كما عرفها الغرب المسيحى . إنما يعرف « علماء الدين » المتخصصين فى دراسته وفقهه . أما بعد ذلك فكل مسلم رجل لدينه .

ومن أخطر ما حدث فى ديار الإسلام أن الفكر العلمانى الغربى لم يقتصر على أجيال المثقفين ثقافة مدنية ، بل غزا بعض الرؤوس التى تنتسب إلى الثقافة الإسلامية ، والتى تخرّجت فى معاهد دينية كالأزهر العتيد . حتى رأينا شيخاً أزهرياً معمماً يحطب فى حبل المستشرقين والمبشرين ، ويؤلف كتاباً عن « الإسلام وأصول الحكم » ^(١) يجرد فيه الإسلام من سلطة الدولة ، ويعلن - فى جراءة - أن الإسلام لا يشترط للحكومة صورة من أى نوع ، فلتكن « مطلقة أو مقيدة ، فردية أو جمهورية ، استبدادية أو شورى ، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية » !! ^(٢) .

ولقد قرأت أعين الغربيين بهذا الكتاب . فلا عجب أن تُرجم إلى الإنجليزية وأصبح يُعد من المراجع الأساسية لعلم الاجتماع الإسلامى فى دراسات الجامعات الأمريكية - على الخصوص - للإسلام وتعاليمه ^(٣) نظراً لصدوره من مسلم هو عالم أزهرى !!

ولا زال عبيد الفكر الغربى - يمينيين ويساريين - ينوّهون بهذا الكتاب الذى

(١) مؤلفه الشيخ على عبد الرازق ، الذى كوفىء فيما بعد فعين وزيراً للأوقاف ، وقد ثار علماء الأزهر على كتابه وقررت مشيخة الأزهر سحب شهادة العالمية منه ، كما رد عليه كثيرون منهم المرحوم العلامة الشيخ محمد الخضر حسين فى كتاب مستقل . وانظر نقد الدكتور محمد البهى لهذا الكتاب فى « الفكر الإسلامى الحديث » فصل « دين لا دولة » وتعليق الدكتور محمد محمد حسين عليه فى « الاتجاهات الوطنية » .

(٢) الإسلام وأصول الحكم ص ٥٣ من الطبعة الثالثة .

(٣) انظر : الفكر الإسلامى الحديث : حاشية ص ٢٤ . الطبعة الثانية .

خرج على التراث الفكرى للأمة الإسلامية فى كل عصورها ، معارضاً قرآنها
وسنتها .. ولا يزالون يحاولون إحياءه كلما مات !

وبعد أكثر من ربع قرن - أى فى سنة ١٩٤٩ - قام بنفس الدور «شيخ الأزهرى
آخر . يهاجم الحكم الإسلامى ، وينادى بالحكم القومى . وذلك فى كتابه الذى
سماه « من هنا نبدأ » ^(١) والذى تلقفته الأجهزة السرية للماسونية والصليبية
والشيوعية ، فروّجت له ، ووسّعت دائرة نشره فى كل مكان ، وبكل سبيل ،
كما روّجت الصليبية للكتاب السابق .

ودون هذا وذاك من « المشايخ » مَنْ يلبسون فوق رؤوسهم « عمام » .
ولكنهم يحملون داخل هذه الرؤوس « فكراً علمانياً » ينظر إلى الحياة والتاريخ
والأحداث بغير منظار الإسلام الملتزم بالكتاب والسنة ، اتباعاً لهوى خفى ،
أو إرضاء لسيّد يُرجى ويُخشى ، أو طمعاً فى مغنم دنيوى ، أو - على أحسن
الفروض - جهلاً بحقيقة الدين العظيم الذى يتزيا بالزى التقليدى لعلمائه ! وهذا
الصنف أداة جيدة يستخدمها الحكام - الليبراليون والاشتراكيون على سواء -
لتضليل الشعوب المسلمة الطيبة ، وضرب الاتجاهات الإسلامية الواعية
الصحيحة .



٢ - النزعة الوطنية والقومية

وكان من نتائج الفكر العلمانى ، والثقافة العلمانية التى خلفها الاستعمار
الغربى فى دنيا المسلمين : ظهور النزعة الوطنية والقومية ، لا بمعنى أن يحب

(١) للشيخ خالد محمد خالد ، وقد رد عليه الشيخ محمد الغزالى بكتاب « من هنا نعلم » ورد
عليه المرحوم محمد فريد وجدى فى مجلة الأزهر « ليس من هنا نبدأ » والمرحوم سيد قطب فى فصل
من كتاب « معركة الإسلام والرأسمالية » . ولخالد كتاب « الديمقراطية .. أبدأ » جرّد فيه الإسلام
من التشريع ، كما جرّده من الأخلاق فى كتابيه « لكى لا تحرثوا فى البحر » و « هذا ..
أو الطوفان » مؤكداً أن « الأخلاق المدنية » أهدى ! فماذا بقى للإسلام !!!

الإنسان وطنه ويهتم بأمره ، أو يحب قومه ، ويعنى بأمرهم ، فهذا لا حرج فيه ، بل هو محمود ديانة ، ولكن بمعنى أن يصبح ولاء المسلم لرقعة معينة من الأرض أو لجنس وعنصر خاص من الناس . ومقتضى هذا أن يقدم الرابطة الطينية والعنصرية وبعبارة أخرى : الوطنية والقومية ، على الرابطة الدينية الإسلامية ، وهذا اتجاه جديد فى حياة الجماعة الإسلامية .

لقد كان وطن المسلم من قبل يعنى « دار الإسلام » على اتساعها ، فكل أرض تجرى فيها أحكام الإسلام ، وتقام شعائره ، ويعلو سلطانه ، هى وطن المسلم : يغار عليه ، ويدافع عنه ، كما يدافع عن مسقط رأسه . وكان العالم ينقسم عند المسلم على هذا الأساس العقائدى : فهو إما دار إسلام ، وإما دار كفر .

وكان قوم المسلم هم المسلمين أو الأمة الإسلامية ، الذين جمعتهم به أخوة الإيمان ، وعقيدة الإسلام : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .. وكان أعداء المسلم هم أعداء الإسلام ، ولو كانوا ألصق الناس به ، وأقربهم إليه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (٢) ..

فالمسلم حين يقف فى صلاته مناجياً ربه بهذا الدعاء : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٣) .. بصيغة الجمع هذه ، يستحضر فى حسه وذهنه أمة الإسلام جمعاء .

وحين يقرأ قول الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. يفهم أن هذا الخطاب موجّه للمسلمين جميعاً أينما كانوا .

وحين يقف الخطيب على المنبر يوم الجمعة ، يدعو للمسلمين كافة دون تفرقة

(٣) الفاتحة : ٦

(٢) المجادلة : ٢٢

(١) الحجرات : ١٠

بين إقليم وإقليم ، ولا بين عنصر وعنصر ، ولا بين لسان ولسان ، بل يقول دائماً : اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات .

فإذا خصّ بلده يوماً بالدعاء له بالنصر والرخاء والسعادة والعزة تجده يقول : لبلدنا هذا خاصة ولسائر بلاد المسلمين عامة .

فالتفكير الإسلامى ، والحس الإسلامى ، لا يعرفان الإقليمية ولا العنصرية بحال من الأحوال .

وفى الفقه الإسلامى نجد هذه الصورة المعبرة عن وحدة الأمة المسلمة ، ووحدة الوطن الإسلامى ، وذلك فيما ينقله العلامة ابن عابدين عن أئمة الفقه الحنفى حيث يقررون : أن الجهاد فرض عَيْنٌ إن هجم العدو على بلد مسلم ، وذلك على مَنْ يقرب من العدو أولاً ، فإن عجزوا أو تكاسلوا ، فعلى مَنْ يليهم ، حتى يُفترض - على هذا التدرج - على كل المسلمين شرقاً وغرباً^(١) . وهذا متفق عليه بين الأئمة جميعاً .

والعجيب أن يقرر فقهاء الإسلام وجوب الدفاع عن البلد المسلم المعتدى عليه ، وإن تكاسل أهله أنفسهم فى الدفاع عنه ، لأن هذا البلد ليس ملك أهله وحدهم ، ولكنه - باعتباره جزءاً من دار الإسلام - ملك المسلمين جميعاً ، وسقوطه فى يد الكفار خسارة وهزيمة للمسلمين قاطبة .

وصورة أخرى يذكرها ابن عابدين : مسلمة سُبِّتَ بالمشرق ، وجب على أهل المغرب تخليصها من الأسر^(٢) .

وقال الإمام مالك : يجب على المسلمين فداء أسراهم ، وإن استغرق ذلك أموالهم !^(٣) .

وهكذا قرر القرآن وقررت السنة أن المسلمين أمة واحدة « يسعى بذمتهم

(١) حاشية ابن عابدين : ٣/٦٣ - طبع استنبول . (٢) المصدر السابق .

(٣) تفسير القرطبي : آية ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ ... ﴾ .

أدناهم وهم يد على مَن سواهم » و « مَن لم يصبح ناصحاً - أى مخلصاً - باراً - لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فليس منهم » .

ولكن النزعة الوطنية والقومية جعلت المسلم يفكر فى وطنه قبل عقيدته ، ويقدم الكافر إذا كان من عنصره أو وطنه على المسلم من عنصر آخر أو فى بلد آخر ، ويسمى هذا أجنبياً ، ويعامله معاملة الأجانب .

وبرزت نزعات جاهلية تتنادى بالقومية العنصرية ، والوطنية الإقليمية ، لا بالأخوة الإسلامية . بل أصبحت الأوطان والقوميات وكأنها أوثان جديدة يعبدونها الناس مع الله !

حتى رأينا شاعراً كشوقى - رغم نزعته الإسلامية الواضحة فى شعره - يقول من قصيدة له يخاطب بها المصريين :

وجه الكنانة ليس يغضب ريكم أن تجعلوه كوجهه معبوداً

وقوله يخاطب الوطن بعد عودته من منفاه :

أدير إليك قبل البيت وجهى إذا فُهِت الشهادة والمتابا

ورأينا الأتراك ينادون بقومية طورانية ، والعرب - فى بلاد الشام - ينادون بقومية عربية ، وانتهى الأمر باقتتال العنصرين الإسلاميين - العربى والتركى - بحد السلاح ، مع قول الرسول ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (١) ، « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » (٢) ، « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » (٣) .

والعجب أن يتخذ أحد العنصرين بعض الكفار أولياء وحلفاء له ضد إخوانه المسلمين ، مع قول الله المحكم : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (٤) ..

(١) رواه مسلم . (٢) رواه الشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٣) رواه الشيخان والترمذى والنسائى . (٤) المائدة : ٥١

كان الاستعمار الصليبي - ممثلاً في مؤسساته التبشيرية والاستشرافية ونحوها - وكانت اليهودية العالمية - ممثلة في منظماتها السرية كالماسونية وغيرها - من وراء بذر بذور هذه الفتنة : فتنة الوطنية والقومية ^(١) ، لتحطيم الوحدة الإسلامية التي تمثلها الخلافة العثمانية ، على ما بها من علل وعيوب ، ولتمزيق العالم الإسلامي إلى أجزاء يسهل ابتلاعها ، وفرض الوصاية عليها ، كما يصعب قيام دولة إسلامية كبرى تضم المسلمين تحت راية الإسلام ، وتعيد عهد الفاتحين المنتصرين من الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين .

وقد استعان الاستعمار واليهودية في إنجاح هذا الاتجاه وإشاعته وتمكينه بيهود الدوغة وأشباههم في تركيا ، كما استعان بنصاري الشام في بلاد العرب . ثم انتقلت العدوى بعد ذلك من هؤلاء وأولئك إلى أبناء المسلمين أنفسهم .

وسقطت القلعة الإسلامية - الخلافة - وكانت كارثة زلزلت مشاعر المسلمين ، واضطرب لها قاصيهم ودانيهم ^(٢) وثار المسلمون هنا وهناك ، وعقدوا المؤتمرات ، ولكنه باءت جميعاً بالفشل ، وتمزقت أرض الإسلام إلى اليوم ، وقرت عين الاستعمار والصهيونية ، بهدم تلك الدولة الكبرى ، وقيام الدويلات المتفرقة هنا وهناك .

يقول « برنارد لويس » :

« والتغريب الذي كان أكثره من عمل « المتغربين » من أبناء الشرق ، جاء بتغييرات يُشكك كثيراً في قيمتها . وأول هذه التغييرات هو الانحلال السياسي الذي أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها . فقبل ذلك التاريخ كان في الشرق الأوسط نظام سياسي مستقر ، فالشاه يحكم إيران ، والسلطان هو عاهل

(١) سنعود للحديث عن القومية في فصل « الاشتراكية الثورية » .

(٢) عبّر أمير الشعراء أحمد شوقي عن مشاعر الأمة الإسلامية إزاء هذه الكارثة في قصيدته الرائعة التي يجب أن تقرر في جميع المدارس العربية في كتب النصوص والأدب : « عادت أغاني العرس رجع نواح » !

المملكة العثمانية التى تشمل كل ما بقى من الشرق الأوسط ، وقد لا يكون كل السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم محبوبين من رعاياهم ، ولكنهم كانوا فى موضع احترام ، والأهم من ذلك أنه لم يكن هناك خلاف على مشروعية الحكم ، فالسلطان هو الحاكم بلا منازع ، لأنه عاقل لآخر خلافة إسلامية تضم جميع مسلمى العالم تقريباً .. ثم عُزل السلطان .. وهدمت الخلافة ، وقام مقامه عدد من الملوك والرؤساء والديكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمرهم ، وريحوا تصفيق وتأييد شعوبهم .. ولكنهم لم يكونوا أبداً موضع الرضا التام ، والقبول الطبعى ، والولاء الأكيد ، الذى كان ممنوحاً لحكومة السلطان الشرعية ، وهذا الولاء والقبول والرضا جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب أو للديماجوجية السياسية فى الحكم .

« وبضياع الشرعية والولاء خسر أهل الشرق الأوسط » هويتهم الواحدة « القديمة . فبعد أن كان كل مواطن عضواً من أعضاء امبراطورية إسلامية كبيرة لها ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ ، وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة ، والوحدات السياسية الجديدة المفتعلة ، التى تحاول الآن إيجاد جذور لها فى ضمير الشعب وولائه . وصاحبَ نفس وانهيار النظام السياسى القديم - على أية حال - انحلال اجتماعى وثقافى مواز له . وربما كان النظام القديم فى حالة تفسخ ، ولكنه على أية حال كان قائماً بوظيفته ، حيث كانت الولاءات والمسئوليات واضحة الحدود والمعالم ، تجمع جميع فئات الشعب فى إطار واحد . ثم دمرت الأساليب القديمة ، وسخر من القيم القديمة ثم أهملت ، وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب ، التى بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال المسلمين فى الشرق الأوسط بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم »^(١) .

كانت النزعة الوطنية أسبق من الفكرة القومية فى الوطن العربى . وخصوصاً

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٦١

فى مصر . وكانت النزعة الوطنية المصرية فى بعض مراحلها مقرونة بنزعة إسلامية واضحة . فالزعيم مصطفى كامل الذى يتغنى بوطنية مصرية عاطفية أخاذاً ، يسعى فى الوقت نفسه إلى الارتباط بدولة الخلافة العثمانية .

ثم جاء دور انعزلت فيه مصر عن العرب وعن المسلمين ، حتى إن رئيس وزراء مصرىاً سئل مرة عن أمر يتعلق بقضية فلسطين فأجاب بكلمته المشهورة : أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين !!

وكذلك فرط الحكم المصرى فى تسليم أريتريا للحبشة الحاكمة المتعصبة ، دون وعى ولا شعور بمقدار ما ارتكبته تلك الحكومة من جناية فى حق العروبة الإسلام .

كان التيار الإسلامى هو - وحده - الذى ينير العقول ، ويغذى المشاعر ، ويوجهها إلى الوحدة الإسلامية - والوحدة العربية جزء منها . وكان هو الذى يتبنى قضايا العرب والمسلمين ، وينتهاز لذلك الفرص والمناسبات . كالثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ ، وذكرى وعد بلفور فى ٢ نوفمبر من كل عام .



٣ - أثر الليبرالية فى المجال الاقتصادى

يجب علينا - لكى نوضح صورة الأوضاع الاقتصادية فى عهد الحكم الوطنى الليبرالى وآثارها فى الحياة الاجتماعية - أن نشير إلى هذه الأوضاع كيف كانت فى عهد تسلط الاستعمار ، فإن هذا العهد هو الذى يذر البذور ، ووضع الأسس لما ورثه من العهود .

« لقد رأينا - كما يقول الدكتور محمد البهى - أن الغرب ، يوم استضعف الأمة الإسلامية . فى إفريقيا وآسيا ، منذ القرن التاسع عشر ، وبدء عصر الصناعة الحديثة ، دخل ديارها بجنوده ، واحتكر ثرواتها لمصالح مصانعه . برؤوس أمواله ، وسخر أبنائها فى خدمة الاقتصاد الأوروبى . بنفوذ السياسى .

ثم أرسى قواعد نظامه ، الإدارى والسياسى ، وثبت نظامه الاقتصادى

الرأسمالى ، وطارد القيم الأصلية للمجتمع ، واستبدل بها النظام العلمانى فى التعليم ، ونظريات الفقه الأوروبى فى التشريع ، وقيّم التبعية للغرب فى التوجيه ، ولقد وصل الوضع فى كل مجتمع إسلامى إفريقى أو آسيوى استعمره الغرب الأوروبى لصالح صناعته ، ورؤوس أمواله .. إلى :

- تمكين الأجانب - وهم أهل حرب - من اغتصاب الثروة القومية ، بمساعدة القوة العسكرية ، وعلى الأخص مصادر الثروة المعدنية ، والأراضى الزراعية الجيدة ، والمرافق الحيوية العامة .

- تسخير المسلمين فى تنمية رؤوس الأموال الأجنبية ، بدون مقابل ، أو مقابل أجور زهيدة .

- استنزاف الدخل القومى ، باحتكار التجارة الخارجية فى المحاصيل الرئيسية ، والسلع المصنّعة ، للاستهلاك الضرورى .

- رهن الأراضى والأموال العقارية بالفائدة المركبة .

- إقامة البنوك لتيسير الحوالات المالية ، وإعادة نقل رؤوس الأموال إلى الخارج من فائض العائد الوفير ، لخدمة البناء الأوروبى ، على حساب إفقار الشعوب الإسلامية من ثرواتها الخاصة ، وطاقت أبنائها البشرية ، وطالما أن عمليات التصدير والاستيراد تساعد على إنجازها البنوك ، فى غيبة بنك مركزى للدولة ، فهى ثغرة واسعة لتهريب الأموال ، أو إعادة ما ورد منها ، وأربا الباقى من ثمرتها وعائدها .

ولقد كان القطاع الاقتصادى فى المجتمع الإسلامى المستعمر ، هو القطاع السرى المغلق الذى لا يدخله الوطنيون ، إلا لأداء خدمات محدودة ، وفى غالب الأحيان تكون خدمات إضافية : فاللغة فيه أجنبية ، والفنيون فيه أجانب عملاء لهم ممن يدينون بدينهم ، والأسلوب الاقتصادى أجنبى ، وهو الأسلوب الرأسمالى ، والمال أجنبى والعائد منه للأجنبى .

والوطن فى هذا القطاع كان الثروة ، والمجهود البشرى فى العمل والعائد منه كان الفقر ، والمذلة على المواطنين « (١) » .

(١) انظر : الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر للأستاذ الدكتور محمد البهى .

هذه حالة الاقتصاد أيام ضغط الاستعمار ، وسلطة الاحتلال .

ولما قام الحكم الوطنى « الليبرالى » لم يتغير الوضع كثيراً عما كان عليه من قبل . ففى ظل النظام الليبرالى الديمقراطى الذى ساد البلاد الإسلامية بعد استقلالها ، قام نظام اقتصادى ، يستوحى أفكاره ، ويستقى أنظمته ، من نفس النظام السائد فى العالم الغربى الرأسمالى ، والذى وضع الاستعمار أسس بنائه كما ذكرنا من قبل .

وكان من أبرز معالم هذا النظام ، أو قُلْ : من أبرز معانيه - من وجهة النظر الإسلامية - ما يأتى :

١ - إقرار النظام الربوى الرأسمالى ، وإبقاء البنوك المتنوعة ، فى شتى البلاد الإسلامية على هذا الأساس ، بل التوسع فى إنشائها ، مع أن الربا فى الإسلام من كبائر المحرمات ، ومن السبع الموبقات ، وأكله ومؤكله ، وكتبه وشاهده ، ملعونون على لسان محمد ﷺ . ومن أكل الربا ، فقد أذن بحرب من الله ورسوله ، ومن استحله فقد خلع ريقه الإسلام من عنقه .

والغريب أن كثيراً من المسلمين ، استسلموا لهذا الواقع ، وسلموا أعناقهم للبنوك المرابية التى تحركها أصابع اليهودية العالمية الرأسمالية ، والمتحكمة فى ذهب العالم ونقده ، والمستفيدة الأولى من وراء الربا ، غنى ونفوذاً وسيطرة على مقدرات الأمم الاقتصادية والسياسية .

وليت هؤلاء المسلمون ، اكتفوا بالاستسلام للواقع على كُرهِ ، بل راح بعضهم يبحث عن مسوغات وفتاوى شرعية ، يبرر بها مسلكه ، ويضفى على هذا الاقتصاد الربوى صبغة إسلامية .

٢ - وفى مقابل إحلال الربا الذى انتشر فى كل مجال - حتى إن من لم تحرقه ناره ، أصابه دخانه - عَطَلَت فريضة « الزكاة » تعطيلاً كلياً ، ولم يجعل لها فى نظام الدولة أى موضع أو اعتبار . مع أن الإسلام جعلها أحد مبانيه العظام ، وثلاثة دعائمه الخمس ، وجعلها مع التوحيد والصلاة عنوان الدخول فى

دين الإسلام ، واستحقاق أخوة المسلمين : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ^(١) فهي حق معلوم ، وضريبة مقدّسة فرضها
الله في أموال أغنياء الأمة ، لتُرد على فقرائها ، فهي من الأمة وإليها ، وهي
من مال الله لعباد الله ، ليس فيها معنى التبرع أو التطوع أو الإحسان
الاختياري ، بل تحصيلها وتوزيعها موكول إلى الدولة المسلمة ، تأخذها من
أربابها ، وتردها على مستحقيها ، بواسطة « العاملين عليها » .. المنصوص
عليهم في القرآن الكريم .

فَمَنْ أَنْكَرَ وَجوبها ولزومها كفر وارتد عن الإسلام ، وطلبت منه التوبة
أو يُقتل ، وَمَنْ أَقْرَبُهَا وامتنع من أدائها ، أخذت منه قسراً وكرهاً ، وإن كان
ذا شوكة ومنعة قوتل بقوة السلاح حتى يؤديها ، ورحم الله أبا بكر خليفة
رسول الله ﷺ الذي قال : « واللّٰه لو منعوني عقلاً كانوا يؤذونه لرسول الله ،
لقاتلتهم عليه » .

واختفى مع فريضة الزكاة التكافل الإسلامي كله ، فلم يعد للفقراء والمساكين
والغارمين وأمثالهم - من أصحاب الحاجات الأصلية أو الطارئة - مورد يفي
بحاجتهم ، أو يُخفف من بؤسهم ، فظلت هذه الفئات الضعيفة في المجتمع كسيرة
الظهر ، مهيضة الجناح ، لا تجد أملاً ، إلا في الشكوى إلى الله ، ولا عوناً إلا في
صدقات المحسنين ، التي لا تُسمن ولا تُغنى من جوع !

٣ - إتاحة الفرص المذهلة للأسر الكبيرة وأصحاب النفوذ والجاه ، ممن
احتكروا الحكم والسلطان ، فاحتكروا من ورائه المغنم والمكاسب ، فالاستيراد
والتصدير في أيديهم ، والمناقصات الكبيرة ترسو عليهم ، والمشروعات المربحة
من حظهم وحدهم ، وغيرها ، وغيرها ..

وهذه الفرص الحرام ، جعلت الأغنياء يزدادون غنىً وشحماً ، على حين يزداد

(١) التوبة : ١١

الفقراء والضعفاء فقراً وضعفاً وهزالاً ، وجعلت توزيع الثروة يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . فلم يبق مجال يُذكر لنمو التاجر الصغير ، أو المحترف الفقير ، أو العامل الضعيف ، ما لم يكن له كبير يسنده ، أو حزب يعضده ، أو يسلك إلى الثروة طرقاً لا ترضاهم الأخلاق ، أو تُتاح له فرص مفاجئة لم تكن فى الحسبان .

وهكذا اتسعت الشقة ، وعظمت الفوارق بين أبناء المجتمع الواحد ، فريق يغرق فى الذهب والنعيم إلى الأذقان ، وفريق يهلك فى مفازة الجوع والظما والحرمان ، فريق يعيش بين الغانية والكأس ، وآخر يموت بين المحراث والفأس ... فريق يشكو زحمة البطنة ، وآخر يشكو عضة الجوع !

وازداد الطين بلةً ، فى البلاد التى تدفق فيها الذهب الأسود ، فقد جعل الثروة تتسبب بسرعة مفاجئة ، وبكثرة هائلة ، على طائفة قليلة من الناس ، أصبحت تلعب بالملايين لعباً ، تبعثرها ذات اليمين وذات الشمال ، على حين لم تنل أكثرية الشعب حظها العادل من هذه الثروة التى أفاءها الله على عباده جميعاً .

والعجيب أن معظم الذين يزدادون غنىً فى البلاد الإسلامية ، من العاطلين ، الذين لا يعملون ولا يكدحون ، فهم يأخذون من الحياة ولا يعطون ، ويستفيدون من المجتمع ولا يفيدون ، أما الأشقياء المحرومون ، فهم الكادحون المتعبون ، الذين يواصلون سهر الليل بعناء النهار ، ولا يجدون إلا الفتات ، ممزوجاً بالدم والعرق والدموع !!

وأعجب من هذا محاولة قوم الكذب على الله ، وعلى دينه ، وعلى الحياة والواقع جميعاً . فهم يريدون تبرير هذا الظلم الاجتماعى ، والعوج الاقتصادى ، والانحراف الأخلاقى ، بنسبته إلى القَدَر يوماً ، بمثل قولهم : « فضل الله يؤتیه مَنْ يشاء » ! أو قولهم : « سبحان مَنْ قسم الحظوظ » ! كأنما الناس لا اختيار لهم فى هذا الظلم ، ولا يد لهم فى هذا العوج والانحراف ، وكأنما الإنسان مُسَيَّر لا مُخَيَّر !! نفس الفكرة الجبرية التى ردها المشركون قديماً ، وحكاها

القرآن الكريم منكراً ومسفهاً ، حين قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) ..

وأحياناً ينسبونه إلى الشرع نفسه ، فيقرأون قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) .. ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ (٣) .. وما شابهها من الآيات . كأن التفضيل معناه إعطاء كل شيء لفريق ، وحرمان الآخرين من كل شيء !! مع أن التفضيل يعنى اشتراك الفريقين فى الرزق وزيادة أحدهما على الآخر فيه .

ونسى هؤلاء الكاذبون على الله ، كيف شرع سبحانه قسمة الفىء فى كتابه ، بحيث يوزع على المصالح العامة فى الأمة ، وعلى الفئات المحتاجة منها خاصة ، معللاً ذلك التوزيع بهذه الجملة القرآنية المعجزة : ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ (٤) ..

وأحياناً يكذبون على الحياة ، فيقول أحدهم ما قال أخوه قارون من قبل : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٥) .. وكذب ، فكم من أناس أفضل منه علماً ، وأكثر منه عملاً ، لم ينالوا إلا الشقاء والحرمان : ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦) ..

٤ - يتمم الصورة السابقة بروز الملكيات الزراعية الكبيرة ، حتى بلغ ملك الواحد من كبراء القوم ألوف الأفدنة ، بل عشرات الآلاف أحياناً ، وأصبح « الباشا » الواحد فى بلد كمصر يملك عدة قرى بأسرها ، حتى مساكن الفلاحين فيها ، ويات الإقطاعى من هؤلاء يوسع ملكيته يوماً بعد يوم ، إما بشراء أراض جديدة

(٣) النحل : ٧١

(٢) الزخرف : ٣٢

(١) يس : ٤٧

(٦) الزمر : ٥٠

(٥) القصص : ٧٨

(٤) الحشر : ٧

من صغار المزارعين ، أو بامتلاك أراضٍ مستصلحة يحييها بعرق الفلاحين ويملكها هو ، مقابل أجور بخسة ظالمة يدفعها لهؤلاء المساكين ، الذين يكسون الأرض بالحضرة وهم يذبلون ، ويحيونها وهم يموتون ! هؤلاء الذين يزرعون القمح ويأكلون الطين ، وينتجون الثمار ولا يصيبون إلا النوى ، وبينون على كواهلهم القصور وهم يسكنون فى منازل كالقبور !

لقد ظلّمهم السادة المترفون الذين حسبوا أن هؤلاء إنما خلّقوا للشقاء والخدمة وأما هم فخلّقوا للسيادة والنعمة ! لقد كانت صورة ظالمة ومظلمة ، وإن لم تصل فى ظلّمها وظلامها إلى درجة الإقطاع الذى عرفته أوروبا فى عصرها الوسطى ، وكان المزارعون فى الأرض عبيداً لمالكها . فهذا اللون لم يعرفه المجتمع الإسلامى فى أى بلد ولا فى أى عصر ، رغم هذا الانحراف الواضح عن خط الإسلام المستقيم ومع هذا لم يلبث الشعور الإسلامى العام أن أنكره وثار عليه .

٥ - يضاف إلى هذا أن الحكم الليبرالى لم يستطع أن يُطوّر اقتصاد المجتمع بحيث يتحول إلى مجتمع صناعى قوى ، مكثف بذاته ، قادر على حماية نفسه ، مستخدم لأقصى إمكانات « التكنولوجيا » الحديثة .

صحيح أن الصناعة دخلت فى بعض الأقطار ونجحت إلى حد كبير ، وكان لها أثرها الطيب العظيم بجهد الشركات الوطنية ، كالذى قامت به شركة مصر للغزل والنسيج وأشباهاها . ولكنها لم تستطع توسيع نطاقها إلى الحد المطلوب ، وبقيت الزراعة محور النشاط الاقتصادى للمجتمع ، كما أنه بقى عالة على الغرب فى الصناعات الثقيلة وفى استيراد الأجهزة والآلات الدقيقة كلها حتى إبرة الخياطة ، كما أنه لم يستطع أن يزيد من مساحة الرقعة الزراعية بما يوازى التزايد المستمر فى عدد السكان ، ولا أن يُحسّن الإنتاج الزراعى باستخدام الوسائل الحديثة ، ولا أن ينمى الإنتاج الحيوانى ، ولا أن يواجه مشكلة البطالة المتزايدة بعلاج حاسم .

وهكذا ظل « التخلف » سمة مجتمعاتنا . وبهذا تضاعف السوء ، حيث اجتمع إلى سوء التوزيع ضعف الإنتاج .



٤ - أثر الليبرالية فى الحياة الاجتماعية

وعلى الصعيد الاجتماعى كان للفساد الاقتصادى السابق أثره فى خلق تمايز طبقى لا ريب فيه . مع أن الإسلام - دين المجتمع - يفرض الإخاء والمساواة وينكر الطبقة ويسد عليها الطريق ، ولكن الواقع العملى - بتنكره للإسلام - جعل من الأغنياء « طبقة » تتوارث الغنى والثروة ، كما جعل من الفقراء طبقة تتوارث البؤس والشقوة . أولئك كُتب لهم أن يعيشوا فى حياة الترف ناعمين ، وهؤلاء كُتب عليهم أن يعيشوا فى أكواخ الحرمان لاهئين . وكان هذا الترف فى جانب الأقلية العاطلة ، والحرمان فى جانب الأكثرية العاملة ، نذيراً بانهايار المجتمع وإشرافه على هاوية الهلاك والدمار ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١) ..

ولا عجب أن شاع شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وأصبح فى المجتمع الإسلامى حانات وأندية يُمارس فيها هذا الرجز من عمل الشيطان !!

ولا غرابة كذلك إذا شاعت الفاحشة ، وانتشر وباء الزنا سراً وعلانية ، وصار فى بلاد الإسلام مراقص وكباريهات قائمة لتسهيل العبث والفجور ، وعملت المؤسسات المشبوهة المخربة عملها فى التهوين من فضيلة العفاف ، وفى التحريض على التحلل من عرا الأخلاق ، وفى تيسير كل السبل للشهوات والغرائز الحيوانية ، واستخدمت كل الوسائل من الصورة والخبر ، والأغنية والقصة و « الفيلم » والتمثيلية ، والزى المغرى ، والسهرات المختلطة ... إلخ .

(١) الإسراء : ١٦

وأصبحت القيم الإسلامية الأصيلة ، والعقائد الإسلامية العريقة ، تواجه محنة آخذة بالحناق ، فقد صارت « مودة » قديمة ، وأصبح المتمسكون بها « رجعيين » متخلفين . وتكاتفت الصحافة والخيالة (السينما) والمسرح والإذاعة والكتاب ، بل المدرسة والجامعة ، وكل المؤسسات التوجيهية والإعلامية ، والتثقيفية والترفيهية ، على السير فى هذا الاتجاه : إغراء الرجال بالمجون والفجور ، وإغراء المرأة بأن تتمرد على فطرتها الأنثوية ، وتشبه بالجنس الآخر وتنافس ، وأن تلبس ما يجذب إليها أنظار الرجال ، لا ما يغطى مفاتن الجسد ويستر العورات عن أعين الأجانب . والعجب أن يتم كل هذا الفساد العريض تحت عنوان برأق مضلل هو « الحرية الشخصية » بمفهومها الغربى الذى لم تعرفه هذه الأمة ، التى فرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعل بعضها أولياء بعض ، وحذرنا نبيها من ترك المنكر يفسو دون أن يأخذوا على يد صاحبه ، أو يعمهم الله بعقاب من عنده .

وحقت اللعنة على الأمة بالحلل شبابها وبناتها ، فتميع الشباب واسترجل النساء ! و « لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » !

والحقيقة أن موضوع المرأة كان من أظهر الموضوعات التى انهزم فيها المجتمع الإسلامى أمام الغزو الغربى ، فلقد فقدت المرأة المسلمة بسرعة مذهلة شخصيتها الأصيلة ، وتقاليدها العريقة . وأصبحت ذليلاً للمرأة الغربية فى كل شىء ، أو قل : إنها صارت دمية يحركها العابثون بالقيم من مصممى الأزياء ، وتجار المساحيق ، وأصحاب الصحف الداعرة وغيرهم من المخربين .

يقول : « جان بول رو » فى كتابه « الإسلام فى الغرب » ، فى فصل « تغريب الإسلام » :

« إن التأثير الغربى الذى يظهر فى كل المجالات ويقلب رأساً على عقب المجتمع الإسلامى لا يبدو فى جلاء أفضل مما يبدو فى تحرر المرأة » .

قال : « وكانت تركيا » الكمالية « أول مَنْ فكر فى تغيير نظام المرأة ، وكان هذا يعنى معارضة التوراة فى سفر التكوين : « وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » (١) ومعارضة القرآن : ﴿ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أهـ (٢) .

وتحرير المرأة الذى يزعمونه ، يعنى ما قلناه : أن تتمرد على فطرتها بوصفها أنثى خلقها الله لتكون زوجة وأماً ، وأن تدع مملكتها المسئولة عنها لتخرج إلى الشوارع والأسواق والملاهى والمصانع وغيرها ، لتزاحم الرجال بالمناكب ، وتتسلح بكل ألوان الزينة والإغراء . لتجذب الرجال وتباهى النساء الأخريات ، التحرير هنا : يعنى إزالة الحواجز بين المرأة والرجل ليستمتع كلاهما بالآخر فى عبث ، بلا قيود من شريعة أو أخلاق .

كما يعنى تحرير المرأة فى ديار الإسلام أن تدخل إلى العلاقات الأسرية - التى نظمها الإسلام بأحكام الشرع - الأفكار والتقاليد النصرانية التى تحرم الطلاق وتعدد الزوجات .. هاتان هما الركيزتان اللتان يقوم عليهما تحرير المرأة المزعوم :

١ - إدخال الأفكار والتقاليد النصرانية فى حياة الأسرة المسلمة .

٢ - إخراج المرأة المسلمة من بيتها ووظيفتها لتفتن الشباب وتنشر الميوعة والفساد والانحلال أو لتكون ألعوبة بأيدي الخبثاء من الرجال .

* * *

٥ - سيادة القوانين الوضعية

وكان من مخلفات الاستعمار وآثاره ، التى أقرتها وباركتها الليبرالية الديمقراطية وجود « قوانين وضعية » تحكم بها « محاكم مدنية » وهى قوانين تنتظم معظم شئون الحياة والعلاقات : المدنية والتجارية والجنائية والإدارية والدولية .

(٢) النساء : ٣٤

(١) الإصحاح الثالث ١٦ - ١٧

أما الشريعة الإسلامية التى حكمت ديار الإسلام ثلاثة عشر قرناً ، فقد زُحِرت عن مكانها ، وحُصرت فى ركن ضيق تنظمه وتقضى فيه ، وهو ما يتعلق بشئون الأسرة أو ما يسمى « الأحوال الشخصية » التى تنظر فيها « المحاكم الشرعية » .

ووصفت القوانين الحديثة المستوردة من فرنسا وغيرها بأنها عصرية ، وإنسانية ومتطورة ، على حين غُمزت الشريعة وأحكامها بأنها جامدة ، أو رجعية ، أو غير قابلة للتطبيق فى العصر الحاضر ، بل ربما اتُهمت - تلميحاً أو تصريحاً - بأن فى أحكامها قسوة ووحشية !!

وترتب على إقرار القوانين الوضعية الأجنبية الأصل ، مخالفة الإسلام دين الأمة - بل دين الدولة كما نصّت معظم الدساتير - مخالفة ظاهرة ، بإحلال المحرمات ، أو إقرار المنكرات ، أو إهمال الواجبات ، أو إسقاط العقوبات ، مع أمر القرآن الصريح بالحكم بما أنزل الله ، ورميه بالكفر والظلم والفسق كل من لم يحكم بما أنزل الله .

أجل .. رأينا القوانين الوضعية تعطل العقوبات والحدود الشرعية المنصوص عليها فى الكتاب والسنة جميعاً ، لأنها لا تليق بالعصر !! وتقر الربا ، وهو من الموبقات السبع فى الإسلام ، ولا تقترفه أمة إلا أذنت بحرب من الله ورسوله .

ورأيناها تقر شرب الخمر وصنعها واستيرادها والاتجار فيها ، ولا ترى فى ذلك جريمة تستحق العقوبة ، والخمر هى - فى الإسلام - أم الخبائث ومفتاح الشرور .

ورأيناها تقر الزنا ما دام وقوعه بتراضى الطرفين - الزانى والمزنى بها - ولا ترى فى الزنا جريمة إلا فى حالة الاغتصاب والإكراه ، أو فى حالة الخيانة الزوجية إذا رفع الزوج دعوى بذلك على زوجته .

وإذا كان الزنا نفسه ليس جريمة يعاقب عليها القانون الوضعى ، فأولى ألا يعاقب

على مقدمات الزنا من العرى والتهتك والخلاعة ، والتحريض على الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

هذا مع أن المفروض أن تكون القوانين معبرة عن عقائد الأمة وأخلاقها وتقاليدها ، حامية لقيمها وآدابها وتراثها . ولكن العيب الأول فى هذه القوانين أنها مستوردة من أمة غير أمتنا ، لها عقيدة غير عقيدتنا ، وقيم غير قيمنا ، وأخلاق غير أخلاقنا ، وتقاليد غير تقاليدنا .

إن مجتمعنا يعتبر الزنا جريمة وفضيحة ، ولا يسمح أب لابنته ، ولا أخ لأخته ، ولا زوج لزوجته ، ولا قريب لقريبته أن تسقط فى هذا الإثم أو ما هو دونه - كقبلة من شاب أجنبى - فتلوث سمعتها وسمعة أسرته وتلطيخها بالعار .

فأين هذه النظرة لفاحشة الزنا ومقدماته من نظرة الغربيين إلى هذا الأمر ، وكيف نُحكّم قوانينهم فى أمرنا ومجتمعهم غير مجتمعنا ؟

يقول الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى وقد عاش فى فرنسا سنين عدداً :

« القوم هناك يعدون هذه الأمور من الهنات والهيئات ، ولا يلقون لها بالاً ولا تثير نفورهم ولا اشمئزازهم ، ولا تهمهم كثيراً مسائل العرض وما يتصل به ، ويبدو هذا فى كثير من مظاهر حياتهم .

فإذا دخلت - مثلاً - قهوة من قهوات باريس ، أو أية مدينة أو قرية فرنسية أخرى ، فإنه يندر أن تجد رجلاً وامرأة جالسين على مائدة واحدة جلسة وقوراً محتشمة ، بل تجد كليهما يُطوّق الآخر بذراعه ، ويعبث بكثير من أجزاء جسمه . وتجدهما يستغرقان من حين لآخر فى قبلات حارة عميقة بل إنك لتجد فى هذه القهوات عدداً غير يسير من النساء جالسات على أفتاد الرجال .

ويتألف معظم هؤلاء من أصدقاء مع صديقاتهم وأخلاء مع خليلاتهم ، ويندر أن تجد بعضهم زوجاً مع زوجه ، أو خاطبا مع خطيبته .

وتجد مثل هذه المناظر بين الجالسين فى عربات المترو والأتوبيس والقطار وسائر

وسائل المواصلات . وتمر ببعض الطرقات فى باريس أو فى لندن أو تقف فى محطة من محطات المترو أو الأتوبيس فتجد الصديق يحتضن صديقه ، والرجل يحتضن امرأة لم تتعقد معرفته بها إلا منذ دقائق ، ويُقبَّل كل منهما صاحبه على مرأى من جميع الناس ولا يلتفت أحد إليه ، ولا يلتقى إليه بالاً ، فمعظمهم مشغول بمثل ما هو مشغول به ، ولكل منهم شأن يغبنيه ، وتجد ما هو أبشع منظرًا من هذا كله وما يقرب من الفاحشة السافرة إذا دخلت « كباريه » - أى ملهى من ملاهى الليل أو صندوقاً من صناديقه كما يسمونه هناك (Boite de nuit) .

وتدخل مرقصاً من المراقص الراقية فتجد المرأة نصف عارية يحتضنها رجل أجنى عنها ، وتحتك جميع أجزاء جسمه بجميع أجزاء جسمها ويضمها إلى صدره ويراقصها ، وقد تُطفأ الأنوار عمداً من حين لآخر ليتمكن الراقصان مما لا تسمح به الأضواء .

وقد تجد زوجها قابعاً فى ناحية من المرقص ، وكله إعجاب بما تؤديه زوجته ، ويؤديه زميلها من حركات رشيقة !!

ولا يفوته أن يهنئها بعد فراغهما تهنئة حارة ، بحسن توفيقهما فى رقصتهما !!

هذا فى المراقص الراقية .

أما المراقص الشعبية أو ما يسمونه (Bab masette) التى تؤمها طوائف العاملات والخادومات والعمال والمسيطرين على النساء ، المتاجرين بأعراضهن ، أما هذه المراقص الشعبية فحدث عنها ولا حرج ، فإنه لا يكاد يكون شىء فيها محظوراً !

وقد يعلم الزوج هناك أن لزوجته خدناً أو أخداناً ، وقد تعلم الزوجة أن لزوجها خليله أو خليلات ، ويغمض كل منهما العين على ذلك ، ويتقارضان التسامح ليُشبع كل منهما نزوته ، وقد تدعو الزوجة خليلها إلى الغداء أو العشاء فى منزلها ، فيقابلها زوجها بالترحاب مع علمه بأنه خدن لزوجته .

وربما لا تسمح له أوقاته وأعماله بالبقاء معه بعد الغداء أو العشاء ،
فينصرف معتذراً مودعاً تاركاً ضيفه الكريم فى رعاية زوجته !!

بل قد يعاشر الرجل منهم امرأة متزوجة معاشرة الأزواج ، ويقيم معها إقامة
دائمة فى منزلها مع بقائها فى عصمة زوجها ، ومع علم زوجها بذلك ، ويحدث
هذا على الأخص فى الطبقات الراقية ، وقد يُدعى الزوج نفسه إلى الحفلات
والمآدب التى يقيمها العشاقان ، ويبيت عندهما ، فيذهب هو إلى مخدعه ،
وتذهب الزوجة مع عشيقها إلى مخدعهما الخاص بجوار الحجرة التى يببت فيها
الزوج !!

بل قد يقيم العشيق مع عشيقته وزوجها فى منزل واحد ، ويعيش الثلاثة فى
هذا الوضع على أتم وفاق . وهذا الوضع منتشر انتشاراً كبيراً فى فرنسا على
الأخص ، ويسمونه هناك : التعايش الثلاثى . وهذا النظام ليس حديثاً عندهم ،
بل إنه متأصل لديهم منذ عصور قديمة .

فقد كان كاتب فرنسا الكبير « أناتول فرانس » يقيم بصفة دائمة مع عشيقته
مدام « أرمان دو كايافيه » ومع زوجها مسيو « أرمان دو كايافيه » فى منزل
واحد .

وقد سئل مرة عن مدى علاقته بخليلته وبزوجها فقال : « إننا نحن الثلاثة
نعيش على أتم وفاق » !!

هذه هى تقاليد القوم هناك ، فى فرنسا ، فى الغرب ، فلا غرو أن جاءت
قوانينهم معبرة عن أوضاعهم وأعرافهم . فكيف تصلح هذه القوانين لنا وبيننا
وبينهم هذا البون الشاسع فى النظر إلى الأخلاق والآداب ؟



٦ - الحياة النيابية

إن أفضل جوانب الليبرالية الديمقراطية - فى نظرى - هو جانبها السياسى ، الذى يتمثل فى إقامة حياة نيابية . يتمكن فيها الشعب من اختيار ممثليه الذين تتكون منهم « السُلطة التشريعية » فى البرلمان ، وفى المجلس الواحد أو المجلسين .

وهذا الانتخاب إنما يتم عن طريق الانتخاب الحر العام لمن ينال أغلب الأصوات من المرشحين ، المنتمين إلى الأحزاب السياسية أو المستقلين عنها . وهذه « السُلطة المنتخبة » هى التى تملك التشريع للأمة ، كما تملك مراقبة السُلطة التنفيذية (الحكومة) ومحاسبتها وإلزامها أو سحب الثقة عنها ، فلا تستحق البقاء .

وبهذه السُلطة المنتخبة يكون أمر الشعب فى يد نفسه . وتصبح « الأمة مصدر السُلطات » .

إن هذه الصورة - من الناحية النظرية - طيبة ومقبولة ، من الوجهة الإسلامية - فى جملتها - لو أمكن تنفيذها على الوجه الذى ينبغى . وأمكن كذلك تَفَادى ما يصاحبها من مساوئ وشُرور .

وإنما قلت « فى جملتها » لأن للفكرة الإسلامية بعض التحفظات على أجزاء معينة من هذه الصورة .

فالسُلطة المنتخبة لا تملك التشريع فيما لم يأذن به الله ، لا تملك أن تحل حراماً أو تحرم حلالاً أو تعطل فريضة ، فالمشرع الأول هو الله جل شأنه ، وإنما يشرع البشر لأنفسهم فيما أذن لهم فيه ، أى فيما لا نص فيه من مصالح دنياهم ، أو فيما يحتمل وجوهاً عدة ، وأفهاماً شتى يرجحون أحدها مهتدين بقواعد الشرع . وفى هذا وذاك مجال رحب جداً للمقننين من البشر . ولهذا يجب أن يقال : إن الأمة مصدر السُلطات فى حدود شريعة الإسلام . كما يجب أن تكون فى المجالس التشريعية هيئة من « الفقهاء » القادرين على الاستنباط

والاجتهاد ، تُعَرَضُ عليها القوانين ، لترى مدى شرعيتها أو مخالفتها . بَيِّدَ أن النظام الديمقراطي لم يشترط شيئاً من ذلك ، رغم النص في الدستور على أن دين الدولة هو الإسلام .

ثم إن المرشحين لتمثيل الأمة يجب أن يتوافر فيهم الدين والخُلُق بجوار الصفات الأخرى ، كالخبرة بالشئون العامة ، ونحوها . فلا يجوز أن يرشح لتمثيل الأمة فاجر سكير أو تارك للصلاة أو مستخف بالدين .

إن هناك صفتين يشترطهما الإسلام لكل مَنْ يلى عملاً . الأولى : الكفاية للقيام بهذا العمل والخبرة به . والثانية : الأمانة التى بها يُصان هذا العمل ، ويتقى الله فيه . وهذا ما عبّر عنه القرآن على لسان يوسف بقوله : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(١) . وفى قصة موسى على لسان ابنه الشيخ الكبير : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ^(٢) .. فالقوة والعلم تمثل الجانب الذهنى والعملى المشروط للعمل ، والحفظ والأمانة تمثل الجانب الخُلُقَى والنفسى المطلوب لنجاحه أيضاً .

ولكن قوانين الانتخاب المستوردة من الغرب الديمقراطى ، لم تشترط شيئاً من ذلك فى المرشح إلا دفع « تأمين » مالى ، يعجز عنه الفقراء من أبناء الشعب ، فضلاً عن نفقات الدعاية الانتخابية التى لم يوضع لها أى حدود .

ولهذا كان المرشحون - غالباً - هم الأثرياء وكبار الملاك الذين يستطيعون أن « يصرفوا » على الانتخابات ، وأن « يشتروا » الأصوات ممن يملك أن يبيع صوته ، ولو بثمان بخس . وكثير من أبناء القرى - وهم جمهور الشعب - لا يملك صوته حتى يتصرف فى بيعه . بل العبد وما ملكت يده لسيده : مالك المسكن والأرض و « العزبة » .

ولهذا أصبحت « النيابة » عن الأمة - كالوزارة - « حرفة » محتكرة للأسر

الكبيرة . وذوى الجاه والنفوذ . الذين لا يخلو منهم مجلس من المجالس مهما تكن صبغته . لأن هؤلاء الكبراء وزعوا أبناءهم على أحزاب الأغلبية والأقلية ، بحيث يضمّنون « وجودهم » فى كل دورة ، سواء أكان الانتخاب - مزوراً - وهذا هو الغالب ، أم كان الانتخاب حراً نزيهاً ، وقلماً يكون .

ومن ثمّ كان معظم الشعب فى شغل بمتاعبه ومآسيه ولقمة عيشه عن هذه « الملهاة » الكبرى ، التى يقوم بالدور الأكبر فى تمثيلها رجال « الأحزاب السياسية » الذين لم يكن لهم هم أكبر من تخاطف عصا القيادة ، وتجاذب كرسى الوزارة ، وممالة القصر المالك ، وتضليل الشعب الكادح .

كان الشعب يعتقد أن المرشح الذى تريده الحكومة سينجح ، أبد هو أو عارض ، فإذا كانت الحكومة سعدية سينجح السعديون وحلفاؤهم ، وإذا كانت وفدية سينجح الوفديون . كما كان يعلم أن الإنجليز - من وراء الستار - إذا أرادوا حزباً لم يعجزوا عن إنجاحه ، وإذا كرهوه لم يعجزوا عن إسقاطه .

ولهذا كان الذين يشتركون فى الانتخابات فى بلد كمصر نسبة ضئيلة جداً من مجموع الناخبين . لم تزد مرة حسب الإحصاءات عن ١٢ فى المائة .

وكان الدستور يعطى الحكومة حق إعلان « الأحكام العرفية » فى بعض الأحوال الاستثنائية ، ولكن هذه الأحوال - للأسف - أصبحت هى الأساس والقاعدة ، وظلت مصر سنين طويلة سجيننة الحكم العرفى أو العسكرى ، ولم تتحرر من نيره ، إلا فترات قليلة جداً كأنها ومضة برق ثم تختفى ، ولم تقف البرلمانات المنتخبة - للأسف أيضاً - فى صف الحرية ، ولم تقل يوماً للحكومة : ارفعوا أيديكم عن الشعب ، أغمدوا هذا السيف المصلت على رقبتة : سيف الأحكام العسكرية !

وفتحت السجون والمعتقلات أبوابها للبرآء الشرفاء من أبناء الوطن ، وانتلطت السياط بدماء الكثيرين منهم ، وأكلت من لحومهم ، كما حدث فى

سنتى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ (١) ، وهذه المجالس صامتة ، لم تنبس ببنت شفة ، إن لم تكن مؤيدة !!

وكيف لهذه المجالس ذلك وأغلب أعضائها من حزب الحكومة . الذى يوالىها فى الخير والشر ، ويؤيدها بالحق والباطل ، وكثير منهم يعلم أنه لم يتجح إلا بقوة الحكومة وتأبيدها ، فكيف يعارض الفرع أصله ، والخدام مولاه ؟

كما لم تستطع هذه البرلمانات أن تنتصر لفئات الشعب من الفلاحين والعمال والمحترفين وغيرهم من الجاهدين المجاهدين فى سبيل الرزق الحلال . وذلك لأن جل أعضائها كانوا من المترفين الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب ، فكيف يحسون بآلام المتعبين ؟ بل كيف يكون لهؤلاء المساكين مطالب وهم ما خلّقوا إلا ليعملوا فى أرضهم زُرْعاً ، أو فى قصورهم خُدّاماً ؟!

والقصر الملكى ماذا كان دوره ؟ لقد كان غارقاً - مع الحاشية والبطانة - فى الترف والعبث . ولكنه - من ناحية أخرى - كان يشجع « التناحر الحزبى » القائم ويغذيه ، ليستطيع عند الحاجة ضرب الأحزاب والزعامات السياسية بعضها ببعض ، ويظل هو متربّعاً على عرشه ، متمكناً من سلطانه .

لقد فشلت الحياة النيابية ، وذهبت حسنة الديمقراطية السياسية هباء .
وكان لهذا الفشل أسباب عديدة أهمها :

١ - قصور النظام الليبرالى الديمقراطى كله ، وما فيه من عيوب ذاتية ، كما سنبين ذلك فيما بعد .

٢ - فساد الأنظمة الانتخابية التى لم تضع أى شروط للمرشح غير الشرط المالى ، وخلو صحيفته من سوابق الجرائم المخلة بالشرف ، ونحو ذلك من الأمور السلبية .. وعدم تقييد الدعاية الانتخابية بأى قيد ، وعدم وضع ضمانات كافية لنزاهة الانتخابات وحريتها . إلى غير ذلك .

(١) انظر مذكرات الأستاذ محمد على الطاهر عن « معتقل هايكستب » تجد فيه بعض الملامح عن هذه الفترة الكئيبة .

٣ - انتشار الأمية والجهل لدى أكثر فئات الشعب ، وعدم نضوج الوعي السياسى بين المواطنين .

٤ - عدم إيمان الكثيرين بجدوى الانتخابات وعدم الثقة بنتائجها ، لاعتقادهم أن ما تريده الحكومة سينفذ .

٥ - غموض الدستور وقصوره بل تناقضه فى بعض الأحيان ، مما أدى إلى البلبلة والفوضى . ففى مصر - مثلاً - يقرر فى المادة ١٤٩ : أن دين الدولة هو الإسلام ، على حين لا يضع أى ضمانات لرعاية هذه المادة ووضعها موضع التنفيذ ، كما لم يحدد - تحديداً كافياً - سلطة الوزراء وصلتهم بالشعب ، ممثلة فى نوابها ، وموقفهم من رئيس الدولة - الملك حينئذ - وكل ما جاء مما يتصل بهذه النقطة الحساسة لا يكاد يتجاوز ثلاثة أسطر كلها غموض وعموم .

٦ - فساد الأوضاع الاقتصادية التى جعلت أصحاب الثروة هم الذين يملكون الأصوات ، وجعلت الكثيرين يبيعون أصواتهم بثمن بخس .

٧ - فساد الأحزاب السياسية التى كانت شبه محتكرة للنيابة والحكم فى تلك المرحلة ، والتى بلغ الاختلاف والخصام منها مبلغاً مزق الأمة شر ممزق .

* * *

موقف الحركة الإسلامية من هذه الأوضاع

لم تقف « الحركة الإسلامية » من هذه الأوضاع العُوج موقف المتفرج أو المحايد ، ولم ترض لنفسها أن تعيش خرساء اللسان شلاء اليد ، وسوس الفساد ينخر فى كيان الأمة .

لقد حملت لواء الجهاد ، ووقفت فى الساحة تطالب بضرورة التغيير . لم تبخل بالنصح والبيان والإنذار بالخطر . ولم تكتف بإرسال صيحاتها عالية مدوية ، تنبه الغافلين ، وتوقظ النائمين ، وتعلم الجاهلين ، عن طريق كُتُبها ومحاضريها وخطبائها ، ومحدثيها ، بل شخّصت الداء ، ووصفت الدواء ، وقدمت الحلول ،

ورسمت الخطوط المؤلفة للتغيير والإصلاح ، على هدى من شرع الإسلام ، وروح الإسلام .

أجل .. وقفت الحركة الإسلامية صابرة مصابرة مرابطة ، تقاوم الانحراف والفساد ، ووراء الحكومات المتعاقبة القادرة على البطش ، والأحزاب المحتكرة للحكم .. ومن ورائها الإقطاع المتسلط ، ورأس المال المتحكم ، ومن وراء ذلك كله القصر الحاكم ، والإنجليز المحتلون .

● الحركة تطالب بتغيير الأوضاع وترسم منهج التغيير :

وأكتفى هنا بتسجيل فقرات من المقالات التى كتبها مؤسس الحركة الإسلامية الإمام الشهيد حسن البنا ^(١) ، فى افتتاحيات صحيفة الحركة اليومية سنة ١٩٤٨ ، ونشرت بعد ذلك مراراً وتكراراً فى رسالة خاصة بعنوان : « مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى » .

ولم تكن هذه فى الحقيقة مجرد مقالات ، بل خطابات مفتوحة ، أو بيانات موجهة إلى كل من يعنيه أمر البلاد ، وبخاصة الذين قَدَّرَ لهم أن يحملوا مسئولية قيادتها .

ولهذا كانت تبدأ المقالات بهذه الكلمات :

« إلى رئيس الحكومة باعتباره المسئول الأول ..

وإلى أعضاء الهيئات النيابية - على اختلافها - باعتبارهم الدعاة الرسميين لنظام الإسلام .

(١) بالإضافة إلى ما كتبه رجال الحركة فى الصحف والكتب مثل الشيخ محمد الغزالى ، والشهيد عبد القادر عودة وسيد قطب ، وغيرهم . وإلى التيار الضخم الذى أوجدته الحركة بخطبها ومحاضراتها وأحاديثها وسائر أساليبها ، التى ظهر أثرها فى كافة فئات الشعب .

وإلى رؤساء الهيئات الشعبية والسياسية والوطنية والاجتماعية ، باعتبارهم قادة الفكر وموجهى الجماهير .

وإلى كل محب لخير العالم وسيادة بنى الإنسان .
أوجّه هذه الكلمات ، أداءً للأمانة ، وقياماً بحق الدعوة ..
ألا هل بلغت اللهم فاشهد « حسن البنا .

وإذا كان الحديث عن مصر خاصة ، فإنها مثال لما يجرى فى البلاد العربية الأخرى . ثم إن مصر تُعدّ كبرى الدول العربية ، وقبلة الثقافة للبلاد الإسلامية نظراً لوجود أزهرها العريق . وهى البلد « الأم » لكبرى الحركات الإسلامية الحديثة ، فلا عجب أن تفرد تجربتها ببعض العناية .

* *

● فى القضية الوطنية :

وتحت عنوان « قضيتنا الوطنية وكيف تُحلّ فى ضوء التوجيه الإسلامى » يتحدث الشهيد البنا عن الأحداث الوطنية التى تحدّدت فى ذلك الوقت فى « تحقيق وحدة وادى النيل - شماله وجنوبه - وجلاء القوات الأجنبية عنه جميعاً » .

وبعد أن بيّن الموقف الإسلامى النظرى من هذه القضية ، يقدّم الحل العملى فيقول :

« لقد فاضنا فلم نصل إلى شىء ، لتعنت الإنجليز وتصلبهم ومناوراتهم .. واحتكمنا فلم نصل إلى شىء كذلك ، أمام تغليب المصالح الدولية والمطامع الاستعمارية ، ولقد قال كاتب فاضل : إننا وصلنا إلى كسب أدبى عظيم بالدعاية الواسعة لقضيتنا بطرحها أمام أنظار العالم كله ، وإخراجها من حيِّز التفاهم الثنائى الضيق ، إلى حيِّز التحاكم الدولى الواسع ، وذلك صحيح - ولكن هذا الكسب الأدبى لن يغنى عن الحقيقة الواقعة شيئاً ، وهى أننا ما زلنا مع

الإنجليز حيث كنا لم نتقدم خطوة ، بل إن هذا الركود كان مدعاة إلى التساؤل والبلبله .

لم يبق إذن إلا « النبذ على سواء » بأن نعلنهم بالخصومة الصريحة السافرة ، ونقرر فى صراحة إلغاء ما بيننا وبينهم من معاهدات واتفاقات ، ونعلن اعتبار أمة الوادى معهم فى حالة حرب - ولو سلبية - وننظم حياتنا على هذا الاعتبار ، اقتصادياً : بالاكْتفاء والاقتصاد على ما عندنا وعند إخواننا العرب والمسلمين والدول الصديقة إن كانت ، واجتماعياً : بتشجيع روح العزة والكرامة وحب الحرية ، وعملياً : بتدريب الشعب كله تدريباً عسكرياً حتى يأتى أمر الله . وتهياً نفوس الشعب لذلك بدعاية واسعة تامة كاملة ، كما تفعل الأمم إذا واجهت حالة الحرب الحقيقية ، وتتغير كل الأوضاع الاجتماعية على هذا الأساس .

* *

● الوحدة العربية والإسلامية :

وتحت عنوان : « وحدتنا فى ضوء التوجيه الإسلامى » كتب الشهيد حسن البنا رحمه الله يقول :

« معلوم أن الإسلام رسالة عالمية جاءت لخير الأمم والشعوب جميعاً ، لا فرق بين عربى ولا عجمى أو شرقى أو غربى ، ولهذا دعا إلى القضاء على الفوارق الجنسية والعنصرية ، وأعلن الأخوة الإنسانية ، ورفع لواء العالمية بين الناس لأول مرة فى تاريخ البشر » .

« ومعلوم أن الإسلام كذلك قد قرر من باب الأولى أقوى معانى الأخوة بين المؤمنين به ، والمتتسبين إليه ، والمعتقدين برسالته ، حتى جعل الأخوة معنى من معانى الإيمان ، بل هى أكمل معانيه » .

*

« ويوم واجه المسلمون العالم كله صفاً واحداً ، وقلباً واحداً فى ظل هذه الأخوة الصادقة الحققة ، لم تلبث أمامهم ممالك الروابط الإدارية أو السياسة

المجرّدة ساعة من نهار ، وانهزم أمامهم - بغير نظام - الروم والفرس على السواد ، وكونوا امبراطورية ضخمة تمتد من المحيط إلى المحيط ، ذات علم وحضارة ، وقوة وإشراق .

« ويوم غفلوا عن سر قوتهم ولم يأخذوا بهدى كتابهم : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١) ودب إليهم داء الأمم من قبلهم : من تغليب المصالح المادية الزائلة على الأخوة الإيمانية الباقية .. تمزقت هذه الإمبراطورية أيدى سباً ، ولعبت بها المطامع الداخلية والخارجية ، وانتهى أمرها أخيراً جداً بعد الحرب العالمية الأولى إلى الانهيار ، والوقوع فى أسر خصومها من غير المسلمين الذين احتلوا أرضها ، وملكوا أمرها ، وتقاسموها فيما بينهم ، وظنوا أنه قد انتهى أمر الإسلام وختمت الحرب الصليبية أفضل ختام .

« وكانت الدسيسة الكبرى التى اقتحمت على المسلمين عقولهم وقلوبهم أولاً ، ثم أرضهم وبلادهم ثانياً ، هى تأثرهم بالعنصرية والشعوبية ، واعتداد كل أمة منهم بجنسها ، وتناسى ما جاء به الإسلام من القضاء على العصبية الجاهلية والتفاخر بالأجناس والألوان والأنساب .

*

« وقد انتهت الحرب العالمية الثانية ، التى قضت على العنصريات الحديثة فى أوروبا ، عنصرية النازية والفاشية ، فرأينا بعدها الدول الأوروبية الكبرى تسعى سعياً حثيثاً إلى التجمع والتكتل ، باسم العنصريات تارة ، والمصالح تارة أخرى .

« نحن أمام كل هذه الأوضاع العالمية الجديدة ، وأمام تشابه قضاياها وتشاكلها ، فهى كلها قضية واحدة ، معناها استكمال الحرية والاستقلال ، وتكسير قيود الاستغلال والاستعمار ، لا بد أن نلجأ من جديد إلى ما فرضه

الإسلام على أبنائه منذ أول يوم حين جعل الوحدة معنى من معانى الإيمان .. يجب أن نتكامل ونتوحد . وقد بدأنا بالجامعة العربية ، وهى وإن كانت لم تستقر - بعد - الاستقرار الكامل ، إلا أنها نواة طيبة مباركة على كل حال ، فعلينا أن ندعمها ونقويها ، ونخلصها من كل ما يحيط بها من عوامل الضعف والتحلل ، وعلينا بعد ذلك أن نوسع الدائرة حتى تتحقق رابطة شعوب الإسلام - عربية وغير عربية - فتكون نواة « لهيئة الأمم الإسلامية » .. بإذن الله .

وبهذه الطريقة التى ستضيف إلى وسائلنا الخاصة لكل أمة ، من النبذ والجهاد ، معنى آخر من معانى القوة ، هو الوحدة والتجمع ، نستطيع أن نتخلص ، وأن نحفظ التوازن العالمى بين الأمم الطامعة ، والدول المتنافسة على المغامر والحطام .

* *

● نظام الحكم :

وتحت عنوان « نظام الحكم أو الحكومة فى الإسلام » كتب الشهيد يقول :

« يفترض الإسلام الحنيف الحكومة قاعدة من قواعد النظام الاجتماعى الذى جاء به للناس ، فهو لا يقر الفوضى ، ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام ، ولقد قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه : « وإذا كنتم ثلاثة فأمرؤا عليكم رجلاً » .

« فمن ظن أن الدين - أو بعبارة أدق : الإسلام - لا يعرض للسياسة أو أن السياسة ليست من مباحثه ، فقد ظلم نفسه وظلم علمه بهذا الإسلام ، ولا أقول ظلم الإسلام ، فإن الإسلام شريعة الله لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وجميل قول الإمام الغزالى رضى الله عنه : « اعلم أن الشريعة أصل ، والمملك حارس ، وما لا أصل له فمهذوم ، وما لا حارس له فضائع » .

« فلا تقوم « الدولة » الإسلامية إلا على أساس « الدعوة » حتى تكون « دولة رسالة » لا تشكيل إدارة ، ولا حكومة مادة جامدة صماء لا روح فيها - كما لا تقوم « الدعوة » إلا فى حماية تحفظها وتنشرها وتبلغها وتقويها .

*

« وأول خطئنا أننا نسينا هذا الأصل ، ففصلنا الدين عن السياسة عملياً وإن كنا لم نستطع أن نتنكر له نظرياً ، فنصصنا فى دستورنا على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، ولكن هذا النص لم يمنع رجال السياسة وزعماء الهيئات السياسية أن يفسدوا « الذوق الإسلامى » فى الرؤوس ، والنظرة الإسلامية فى النفوس ، والجمال الإسلامى فى الأوضاع . باعتقادهم وإعلانهم وأعمالهم على أن يباعدوا دائماً بين توجيه الدين ومقتضيات السياسة ، وهذا أول الوهن وأصل الفساد » .



ثم بين الدعائم التى يقوم عليها الهيكل الأساسى لنظام الحكم فى الإسلام ، وهى : مسئولية الحاكم ، ووحدة الأمة ، واحترام إرادتها . وبعد أن يشرح هذه الثلاث مبيناً أن لا عبرة بالأسماء والأشكال متى تحققت هذه القواعد . يبين موقف الإسلام من النظام النيابى ومن الدستور المصرى موضحاً غموض هذا الدستور فى تحديد مسئولية الحكومة .. ثم يتعرض للأحزاب التى فقدت كل مقومات البقاء والاستمرار ، ولم يبق لها هم إلا التنافس على الحكم لإرضاء الأنصار ، واضطهاد الخصوم ، فيقول :

● الأحزاب المصرية :

« لقد انعقد إجماع طلاب الإصلاح على أن الأحزاب المصرية هى سيئة هذا الوطن الكبرى ، وهى أساس الفساد الاجتماعى الذى نصطفى بناره الآن وأنها ليست أحزاباً حقيقية بالمعنى الذى تُعرف به الأحزاب (فى بلاد الديمقراطيات !) فهى ليست أكثر من سلسلة انشاقات أحدثتها خلاقات شخصية بين نفر من أبناء هذه الأمة ، اقتضت الظروف فى يوم ما أن يتحدثوا باسمها وأن يطالبوا بحقوقها القومية . كما انعقد الإجماع على أن هذه الأحزاب لا برامج لها ولا مناهج ، ولا خلاف بينها فى شىء أبداً إلا فى الشخصيات . وآية ذلك واضحة فيما تعلن من بيانات خارج الحكم ، وفيما تطلع به من خطب العرش

داخل الحكم . وبما أن الأحزاب هي التي تقدّم الشيوخ والنواب ، وهي التي تُسير دفة الحكم في الحياة النيابية ، فإن من البدهي ألا يستقيم أمر الحكم وهذه حال من يُسيرون دفته .

*

« وهذا الكلام الذي انعقد إجماع الأمة عليه ، أعلنه شيوخ ونواب وفقهاء ودستوريون في صراحة ووضوح ، ومن قرأ ما كتبه علوية باشا في كتابه « مبادئ وطنية » أو الأستاذ حسن الجداوى في كتابه « عيوب الحكم في مصر » أو غيرهما من الكُتّاب رأى صدق ما نقول - وحسبنا أن ننقل هنا فقرة من كتاب الفقيه الدستوري الأستاذ سيد صبرى « مبادئ القانون الدستوري » عن الأحزاب المصرية قال : « والواقع أنه لم يعد لأغلب الأحزاب السياسية في مصر برنامج يدافع عنه أنصاره ، بل أصبح كل حزب عبارة عن وزير سابق له أنصار ومريدون ، ولهذه النتيجة أهميتها فإن الانتخاب لن يقوم على المفاضلة بين البرامج ، فقد أصبحت واحدة للجميع . بل سيقوم على الثقة بالأشخاص أو المفاضلة بينهم ، وستكون الانتخابات شخصية لا حزبية بالمعنى المفهوم لدى الشعوب الغربية ، وبديهي أن بقاء الأحزاب على هذا المنوال يقسم البلاد شيعاً وأحزاباً ، ويشير الشقاق والمنازعات بين الأفراد والأسرات بلا سبب مفهوم ولا أساس معقول » .

« وإذا أضيف إلى هذا أن مصر ما زالت بلداً محتلاً إلى الآن ، وأن الذي يستفيد من هذه الفرقة هم المحتلون الغاصبون فقط ، وأنه إذا استسيغ الخلاف - وهو غير مستساغ بحال - في أمة من الأمم ، فإن أمة وادى النيل هي أحوج ما تكون إلى أكمل معانى الوحدة تتجمع قواها في نضال الاستقلال ، وفي عمل الإصلاح الداخلى - كان الأمر أخطر من أن يُهمل أو يُستهان به » .

* *

● عيوب نظم الانتخاب في مصر :

وبعد الحديث عن خلل الأحزاب ، يتحدث عن خلل الانتخاب فيقول :

« ونحن في مصر قد أخذنا بنظام الانتخاب المباشر تارة في قانون سنة ١٩٢٣ ،

وبنظام الانتخاب على درجتين فى قانون سنة ١٩٣٠ ، وكلاهما فى الواقع لم يحقق الغرض المقصود منه ، وظهرت له حين التطبيق عيوب يجب أن نعمل على إصلاحها بتعديل شامل ، وليس الخطأ عيباً فى ذاته - ولكن نرضا به والاستمرار عليه والدفاع عنه هو الخطأ كل الخطأ - ولقد شعر الجميع بقصور قانون الانتخاب الحالى عن الوفاء بالغرض الذى وضع من أجله ، وهو الوصول إلى اختيار الصالحين للنيابة عن الأمة ، ووُجِهُت إليه انتقادات مُرَّة سَـشِفت عن كثير من العيوب التى أهمها ما ذكره الدكتور سيد صبرى فى كتابه « مبادئ القانون الدستورى » أنه أوجد هيئة ناخبة لا يمكنها تحقيق الغرض من الانتخابات على الوجه المطلوب ، وأنه لم يحقق فكرة تمثيل الأمة تمثيلاً صحيحاً ، وأنه لم يوصل إلى إيجاد هيئة تعمل للصالح العام مجردة من كل قيد . وقد أورد بعد ذلك إحصائية دقيقة خلص منها بالأرقام إلى أن قرارات البرلمان المصرى فى أدواره المختلفة لا تعبر عن رأى الأمة ولا عن رأى أكثريتها ، ولا عن رأى أقلية محترمة من أبنائها وإنما تعبر عن رأى نسبة ضئيلة من مجموع من له حق الانتخاب ، لم تصل يوماً ما إلى ١٢ فى المائة وبيان ذلك :

أن مجلس النواب سنة ١٩٢٦ لا تمثل قراراته - مع أنها صحيحة ونافذة بحكم القانون - إلا ١٠.٧٥ ٪ من هيئة الناخبين ، ومجلس سنة ١٩٢٩ نسبة التمثيل فيه ٩.٢٥ ٪ ، ومجلس سنة ١٩٣٦ النسبة فيه ٩.٢٥ ٪ ، ومجلس سنة ١٩٣٨ النسبة فيه ١١.٧٥ ٪ ، ومجلس سنة ١٩٤٢ النسبة فيه ٩.٧٥ ٪ ، والمجلس الحالى ليس أفضل مما تقدمه .

فكيف يُقال بعد هذا أن ذلك تعبير عن رأى الأمة ، وتمثيل صحيح لها ؟؟

*

● تعديل وإصلاح :

« لا بد من تعديل وإصلاح لقانون الانتخاب ، ومن وجوه هذا الإصلاح الضرورية :

١ - وضع صفات خاصة للمرشحين أنفسهم ، فإذا كانوا ممثلين لهيئات فلا بد

أن يكون لهذه الهيئات برامج واضحة وأغراض مفصلة يتقدم على أساسها هذا المرشح - وإذا لم يكونوا ممثلين لهيئات فلا بد أن يكون لهم من الصفات والمناهج الإصلاحية ما يؤهلهم للتقدم للنيابة عن الأمة ، وهذا المعنى مرتبط إلى حد كبير بإصلاح الأحزاب فى مصر ، وما يجب أن يكون عليه أمر الهيئات السياسية فيها .

٢ - وضع حدود للدعاية الانتخابية ، وفرض عقوبات على من يخالف هذه الحدود . بحيث لا تتناول الأسر ولا البيوت ولا المعانى الشخصية البحتة التى لا دخل لها فى أهلية المرشح ، وإنما تدور حول المناهج والخطط الإصلاحية .

٣ - إصلاح جداول الانتخاب ، وتعميم نظام تحقيق الشخصية ، فقد أصبح أمر جداول الانتخاب أمراً عجبياً بعد أن لعبت بها الأهواء الحزبية والأغراض الحكومية طوال هذه الفترات المتعاقبة ، وفرض التصويت إجبارياً .

٤ - وضع عقوبة قاسية للتزوير من أى نوع كان ، وللرشوة الانتخابية كذلك .

٥ - وإذا عدل إلى الانتخاب بالقائمة - لا الانتخاب الفردى - كان ذلك أولى وأفضل ، حتى يتحرر النواب من ضغط ناخبينهم وتحل المصالح العامة محل المصالح الشخصية فى تقدير النواب والاتصال بهم .

وعلى كل حال فأبواب الإصلاح والتعديل كثيرة ، هذه نماذج منها ، وإذا صدق العزم وضع السبيل ، والخطأ كل الخطأ فى البقاء على هذا الحال والرضا به ، والانصراف عن محاولة الإصلاح » .

*

● ضعف الحكومات :

« لا يجادل أحد فى أن الحكومات المتعاقبة قد ضعفت عن أداء واجبها ، وفقدت معظم هيبتها فى النفوس كحكومة بسبب هذا التجريح بالحق والباطل الذى تمليه الروح الحزبية البحتة ، وبسبب هذا العجز الناتج عن عدم تحديد

المسئولية والاضطلاع بها كاملة غير منقوصة ، ولولا أن النفوس فى مصر مطبوعة بطابع الطاعة والاستسلام ، والأعمال تسير بطريق روتينى لا تجديد فيه ولا ابتكار .. لتعطل كل شىء ، ولعجز الدولاب الإدارى المضطرب عن أن ينهض بحاجات الشعب أو أن يؤدى للناس عملاً » .



● هيبة القانون :

« ولا شك أن سلطان القانون قد تزعزع وفقد معظم احترامه كذلك ، بسبب هذه الاستثناءات والمحسوبيات والحيل المتكررة والاعتداء أحياناً بنسخ القانون لغرض شخصى ... ولو أن هذا النسخ بقانون فى ظاهر الأمر . ولكن الدوافع تكون معروفة دائماً ولا تخفى على أحد ، فيعمل ذلك عمله فى النفوس وينال من هيبة القانون واحترام النظام » .



● حزبية عمياء :

« ولا شك أن نار الخصومة والحقد قد اضطربت فى نفوس الحاكمين والمحكومين على السواء ، بفعل هذه الحزبية الخاطئة ، التى لم نفهمها نحن فى مصر فى يوم من الأيام على أنها خلاف فى الرأي لا يفسد للود قضية ، بل فهمناها عداوة وبغضاء يتعدى النظر فى المصالح العامة إلى المقاطعة فى كل الشئون عامة وخاصة ، وإلى أن نرى الحق فى جانب خصومنا الحزبيين باطلاً والباطل فى جانب أنصارنا الحزبيين حقاً ، ونصدر عن هذا الشعور فى كل تصرفاتنا وصلاتنا ، ويستفحل الداء ويستشرى حتى فى أخرج المواقف ، فلا نستطيع أن نوحّد صفوفنا فى أى موقف قومى - مهما يكن - يتوقف عليه إصلاح أمرنا ومستقبل بلادنا ... وهذا الشعور البغيض ، والفهم الخاطيء للحزبية الذى تحول إلى عداوة متأصلة ، قد كان من نتائجه : أن انصرفت معظم الجهود الفكرية والعملية إلى أمرين استغرقا كل اهتمام رجالنا ، وهما : الإيقاع بالخصوم الحزبيين ، واتقاء مكائدهم . فالحاكم يصرف جل همه فى هاتين

الناحيتين ، والمعارضة لا تقل عن الحاكم اهتماماً بهما ، وفى سبيل ذلك تضييع الحقوق ، وتعطل المصالح ، ويرثى الأصدقاء ، ويشمت الأعداء ، ويستفيد الخصم الجاثم على صدر البلاد . »

✱

« هذه الحال قد أنتجت التحطم فى المعنويات والفساد والاضطراب فى الماديات ، وقد بلغ الأمر منتهاه ولم يعد فى قوس الصبر منزع ولا بد من تغيير حازم حاسم سريع . فإما أن يفقه أولو الأمر هذه الحقيقة ويقدروها ، فيبادروا فى سرعة إلى إجراء التغيير الصالح برأيهم وعلى أيديهم ، وفى ذلك السلامة والاستقرار ، وما زال فى الوقت متسع للإصلاح ، وإما أن يظلوا فى هذا الانصراف فتسبqهم الحوادث ، ويفلت من يدهم الزمام ، ولا يدرى عاقبة ذلك إلا الله . »

✱ ✱

● المشكلات الاقتصادية :

وتحت عنوان « النظام الاقتصادى » يقول الإمام الشهيد :
« هناك حقائق لا يستطيع أحد أن ينكرها ، أو يتجاهلها ، منها :
(أ) غنى طبيعى :

إن هذا البلد ليس فقيراً بطبيعته ، بل لعله أغنى بلاد الله تبارك وتعالى بخيراته الطبيعية ، وثرواته المختلفة ، من زراعية ومائية وحيوانية ومعندية ، ونيله العجيب ، وواديه الخصيب ، وما شئت من فضل الله تبارك وتعالى على مصر وأهل مصر منذ القدم : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (١) ..
(ب) استغلال أجنبى :

ومنها أن الأجانب الذين احتلوا هذا الوطن - بغفلة من أهله ، وتساهل من حكامه ، وظلم من غاصبيه - أسعد حالاً من أهله وبنيه ، وأنهم قد وَّضعوا

أيديهم على أفضل منابع الثروات فيه ، شركات أو أفراداً ، فالصناعة والتجارة ،
والمنافع العامة والمرافق الرئيسية ، كلها بيد هؤلاء الأجانب حقيقة ، أو الأجانب
الذين اتخذوا من الجنسية المصرية شعاراً وما زالوا يحنون بعد إلى أوطانهم
ويؤثرونها بأكبر أرباحهم .

(جـ) ثراء فاحش وفقير مدقع :

ومنها أن التفاوت عظيم ، والبون شاسع ، والفرق كبير بين الطبقات المختلفة
فى هذا الشعب - فثراء فاحش وفقير مدقع - والطبقة المتوسطة تكاد تكون
معدومة ، والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليسوا إلا من الفقراء المعوزين وإن
كنا نسميهم متوسطين ، على قاعدة : بعض الشر أهون من بعض ، ورحم الله
فقهاءنا الذين حبروا البحوث الطويلة فى الفرق بين الفقراء والمساكين وإن كان
كلاهما من المحتاجين البائسين .

(د) تخطيط اقتصادى :

ومنها - وهو الأهم - أننا فى وسط هذا المعترك الحاد الصاحب العنيف ، بين
المبادئ الاقتصادية - من رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية - لم نحدد لوناً
نصبغ به حياتنا الاقتصادية فى وقت تحتم فيه التحديد ، وتعددت فيه الأمور
بحيث لم تعد تنفع فيها أنصاف الحلول ، ولم يعد يجدى إلا الوضوح الكامل ،
وتحديد الأهداف تحديداً دقيقاً ، والسير إليها فى قوة وعزيمة ، وهذه الأوضاع -
وإن امتزجت بها المعانى السياسية - إلا أنها فى أغلب صورها ودوافعها
ونتائجها تعاليم وأوضاع اقتصادية . ولهذا كان لا بد لنا من أن نختر لوناً من
هذه الألوان أو من غيرها إن استطعنا ، لنعيش فى حدود وضع معلوم ، له
خصائصه ومميزاته ، يحدد أهدافنا الرئيسية . ويرسم لنا طريق العمل للوصول
إلى هذه الأهداف .

● إلى الإسلام :

وأعتقد أنه لا خير لنا فى واحد من هذه النظم جميعاً ، فلكل منها عيوبه
الفاحشة ، كما له حسناته البادية .. وهى نظم نبئت فى غير أرضنا ، لأوضاع

غير أوضاعنا ، ومجتمعات فيها غير ما فى مجتمعنا .. فضلاً عن أن بين أيدينا النظام الكامل الذى يؤدى إلى الإصلاح الشامل ، فى توجيهات الإسلام الحنيف ، وفيما وُضِعَ للاقتصاد القومى من قواعد كلية أساسية لو علمناها وطبقناها تطبيقاً سليماً لانحلت مشكلاتنا . ولظفرنا بكل ما فى هذه النظم من حسنات ، وتجنبنا كل ما فيها من سيئات ، وعرفنا كيف يرتفع مستوى المعيشة ، وتستريح كل الطبقات ، ووجدنا أقرب الطرق إلى الحياة الطيبة . »

* *

● قواعد النظام الاقتصادى فى الإسلام :

ثم يتحدث الأستاذ رحمه الله عن أهم قواعد نظام الإسلام الاقتصادى ، فيلخصها فى عشر هى :

١ - اعتبار المال الصالح قوام الحياة ، ووجوب الحرص عليه ، وحسن تدبيره وتشميره .

٢ - إيجاد العمل والكسب لكل قادر .

٣ - الكشف عن منابع الثروات الطبيعية ، ووجوب الاستفادة من كل ما فى الوجود من قوى ومواد .

٤ - تحريم موارد الكسب الخبيث .

٥ - تقريب الشقة بين مختلف الطبقات ، تقريباً يقضى على الثراء الفاحش والفقير المدقع .

٦ - الضمان الاجتماعى لكل مواطن ، وتأمين حياته ، والعمل على راحته وإسعاده .

٧ - الحث على الإنفاق فى وجوه الخير ، وافتراس التكافل بين المواطنين ، ووجوب التعاون على البر والتقوى

٨ - تقرير حرمة المال ، واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة .

٩ - تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم ، والتدقيق فى شئون النقد .

١٠ - تقرير مسئولية الدولة فى حماية هذا النظام .

والذى ينظر فى تعاليم الإسلام ، يجد فيه هذه القواعد مبينة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وكتب الفقه الإسلامى بأوسع بيان .

* *

● حلول ومقترحات عملية لإصلاح الوضع الاقتصادى :

وبعد أن شرح الأستاذ هذه القواعد العشر شرحاً مركزاً مختصراً ، عاد إلى الجانب العملى ، فقدّم فيه طائفة من الحلول والمقترحات الهامة ، المستوحاة من هدى الإسلام :

* استقلال النقد :

يقول : « ذكرنا بعض الأصول التى يقوم عليها النظام الاقتصادى الإسلامى ، والروح التى قملها علينا تلك الأصول التى تنتج مع التطبيق الصحيح وضعاً اقتصادياً سليماً ليس أفضل منه فهى توجب استقلال نقدنا ، واعتماده على رصيد ثابت من مواردنا ومن ذهبنا لا على أذونات الخزانة البريطانية ودار الضرب البريطانية والبنك الأهلى البريطانى - وإن كان مقره مصر - وتأمل الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (١) ..

» ومن أفضع التعبير بهذا الشعب ، أن يسلم جهوده ومنتجاته نظير أوراق لا قيمة لها إلا بالضمان الإنجليزى ، وإن مصر إذا حزمت أمرها ، وأحكمت تصرفاتها ، ستصل ولا شك إلى هذا الاستقلال .. ولقد انفصلنا عن الكتلة الإسترلينية ، وفكرنا فى تأميم البنك الأهلى ، وطالبنا بالديون الكثيرة لنا على الإنجليز ، وكل هذه ونحوها مشروعات تؤمن النقد المصرى .. فماذا فعل الله بها ، وماذا أعدنا من العدة لإنقاذها ؟

(١) النساء : ٥

* تمصير الشركات :

« كما توجب هذه الأصول الاهتمام الكامل بتمصير الشركات وإحلال رؤوس الأموال الوطنية محل رؤوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك وتخليص المرافق العامة - وهى أهم شىء للأمة - من يد غير أبنائها ، فلا يصح بحال أن تكون الأرض والبناء ، والنقل والماء ، والنور والمواصلات الداخلية ، والنقل الخارجى ، حتى الملح والصودا ، فى يد شركات أجنبية تبلغ رؤوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات ، لا يصيب الجمهور الوطنى ولا العامل الوطنى منها إلا البؤس والشقاء والحرمان . »

* استغلال منابع الثروة :

« واستغلال منابع الثروة الطبيعية استغلالاً سريعاً منتجاً ، أمر يوجبه الإسلام الذى لفت أنظارنا كتابه إلى آثار رحمة الله فى الوجود ، وما أودع فى الكون من خيرات فى الأرض وفى السماء وأفاض فى أحكام الركاز ، وحث على طلب الخير أينما كان .. فى الماء عندنا ثروات ، وفى الصحراوات ثروات ، وفى كل مكان ثروات لا ينقصها إلا فكر يتجه ، وعزيمة تدفع ، ويد تعمل ، وخذ بعد ذلك من الخير ما تشاء . »

* المشروعات الكبيرة المهمة (خزان أسوان) :

« والعناية بالمشروعات الوطنية الكبرى المهمة التى طال عليها الأمد ، وقعد بها التراخى والكسل ، أو أحبطتها الخصومة الحزبية أو طمرتها المنافع الشخصية ، أو قضت عليها الألاعيب السياسية والرشوة الحرام ، كل هذه يجب أن تتوجه إليها الهمم من جديد : « إن الله يحب من أحكم إذا عمل عملاً أن يتقنه . »

« كم كنا نريح لو أن مشروع خزان أسوان تحقق فعلاً منذ سنة ١٩٣٧ ، وكما كنا نحتاج ونعزى لو لم يلهم الله « طلعت حرب » - عليه الرضوان - أن يتقدم بمشروعات « المحلة » ! هناك مشروعات كبيرة دُرست ويُحِث ، ثم وُضِعَتْ على

الرف وطال عليها الأمد قبل الحرب ، ولا موجب لهذا الإهمال ، والضرورة قاسية والحاجة ملحة ، والأمر لا يحتمل التأخير .

انفضوا الغبار عن ملفات هذه المشروعات واستذكروها من جديد ونفذوا :
﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ..

* التحول الفوري إلى الصناعة :

« والتحول إلى الصناعة فوراً من روح الإسلام الذى يقول نبيه ﷺ : » إن الله يحب المؤمن المحترف « ، « مَنْ أَمْسَى كَالْأَمْسَى مِنْ عَمَلٍ يَدُهُ أَمْسَى مَغْفُوراً لَهُ » - والذى أثنى كتابه على داود وسليمان بهذا التقدم الصناعى ، وذكر لنا من دقائق الرقى فيه ما أعجز البشر ، واستغل قوى الجن والشياطين .. فحرام على الأمة التى تقرأ فى كتابها من الثناء على داود عليه السلام : ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ، وَأَعْمَلُوا صَالِحاً ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢) وتقرأ : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ؟ (٣) ثم لا يكون فيها مصنع للسلاح - ثم تقرأ فى كتابها : ﴿ وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ غَدُوَّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظَرِ ، وَمَنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ (٤) .. ثم لا يكون فيها مسبك عظيم ، ولا مصنع كامل للأدوات المعدنية - ثم تقرأ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ (٥) ثم تهمل ما عندها من هذا المعدن هذا الإهمال ، وهو من أجود الأنواع ويكفى العالم مائتى عام كما قدر الخبراء .. حرام هذا كله !!

(٣) الأنبياء : ٨٠

(٢) سبأ : ١٠ - ١١

(١) التوبة : ١٠٥

(٥) الحديد : ٢٥

(٤) سبأ : ١٢ - ١٣

* نظام المِلَكِيَّات فى مصر :

« توجب علينا روح الإسلام الحنيف ، وقواعده الأساسية فى الاقتصاد القومى أن نعيد النظر فى نظام المِلَكِيَّات فى مصر ، فنختصر المِلَكِيَّات الكبيرة ^(١) ونعوّض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع ، ونشجع المِلَكِيَّات الصغيرة ، حتى يشعر الفقراء المعدّمون بأن قد أصبح لهم فى هذا الوطن ما يعينهم أمره ، ويهمهم شأنه .. وأن توزع أملاك الحكومة حالاً على هؤلاء الصغار كذلك حتى يكبروا » ..

* تنظيم الضرائب وأولها الزكاة :

« وتوجب علينا روح الإسلام فى تشريعه الاقتصادى ، أن نبادر بتنظيم الضرائب الاجتماعية ، وأولها « ضريبة الزكاة » وليس فى الدنيا تشريع فرض الضريبة على رأس المال لا على الربح وحده كالإسلام ، وذلك لحكم جليلة منها : محاربة الكنز وحبس الأموال عن التداول ، وما جعلت الأموال إلا وسيلة لهذا التداول الذى يستفيد من ورائه كل الذين يقع فى أيديهم هذا المال المتداول ..

« وإنما جعل الإسلام مصارف الزكاة اجتماعية بحتة لتكون سبباً فى جبر النقص والقصور الذى لا تستطيع المشاعر الإنسانية والعواطف الطيبة أن تجبره ، فيظهر بذلك المجتمع ويزكو . وتصفو النفوس وتسمو : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ^(٢) ..

« فلا بد من العناية بفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى - بحسب الربح - يُعْفَى منها الفقراء طبعاً . وتُجَبَّى من الأغنياء الموسرين ، وتُنْفَق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة ^(٣) .. ومن لطائف عمر رضى الله عنه : أنه كان يفرض الضرائب الثقيلة على العنب لأنه فاكهة الأغنياء ،

(١) انظر فى تحديد الملكية : الإسلام المفترى عليه ، للغزالى ص ١٩٩ - ٢٣٨ الطبعة الخامسة .

(٢) التوبة : ١٠٣

(٣) انظر فى جواز فرض الضرائب وشروطه : كتابنا « فقه الزكاة » : ١١٠٥ - ١٠٧٢/٢

والضريبة التى لا تُذكر على التمر لأنه طعام الفقراء . فكان أول مَنْ لاحظ هذا المعنى الاجتماعى - فى الحكام والأمراء - رضى الله عنه .
* محاربة الربا :

« وتوجب علينا روح الإسلام أن نحارب الربا حالاً ونُحرِّمه ، ونقضى على كل تعامل على أساسه : » ألا وإن الربا موضوع ، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب « وصدق رسول الله .

ولقد كان المصلحون يتجنبون أن يقولوا فى الماضى هذا الكلام حتى لا يقال لهم إن ذلك مستحيل وعليه دولاب الاقتصاد العالمى كله ، أما اليوم ... فقد أصبحت هذه الحُجَّة واهية ساقطة لا قيمة لها بعد أن حرِّمت روسيا الربا وجعلته أفظع المنكرات فى دارها ^(١) ، وحرام أن تسبقنا روسيا الشيوعية إلى هذه المنقبة الإسلامية : فالربا حرام .. حرام .. حرام ، وأولى الناس بتحريمه أمم الإسلام ودول الإسلام .

* تشجيع الصناعات المنزلية :

« وتوجب علينا روح الإسلام تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية . وهذا هو باب الإسعاف السريع لهذه العائلات المنكوبة ، وباب التحول إلى الروح الصناعى والوضع الصناعى ... وأولى ما تفعله هذه الأيدى العاطلة : الغزل والنسيج بالأنوال الصغيرة ، وصناعة الصابون ، وصناعة العطور والمربيات ، وأنواع كثيرة وصنوف كبيرة تستطيع النساء والبنات والأولاد أن يشغلوا الوقت فيها ، فتعود بالريح الوفير ، وتمتعهم بؤس الحاجة وذل السؤال .. وقد رأينا هذا بأعيننا منذ زمن فى فوة غربية ، وبنى عدى بمنفلوط ، وغيرها من بلدان القطر المصرى ، ورأينا فى هذه البلاد الثروة والغنى ويُسَرُّ الحال . ولقد كانت وزارة الشئون قد

(١) هذا التحريم من الوجهة النظرية فقط ، أما التطبيق فروسيا لا تقرض أية دولة إلا بالربا ، كما أبحاث بعض أنواع الربا للمواطنين فى الداخل أيضاً .

فكرت فى هذا المشروع الحىوى ، واستحضرت أصنافاً من المغازل . ولا ندرى ماذا فعل الله بها .. ويوم الحكومة بسنة كما يقولون ، ولكن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار » .

* تقليل الكماليات والاكتفاء بالضروريات :

« وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات والاكتفاء بالضروريات ، وأن يكون الكبار فى ذلك قدوة للصغار ، فتبطل هذه الحفلات الماجنة ، ويحرم هذا الترف والإسراف الفاسد ، ويظهر الجد بخشونته وعبوسه ووقاره وهيبته على الدور والقصور ، والوجوه والمنتديات ... أمر يحتمه الإسلام الحنيف ، وكل ذلك يحتاج إلى إعداد .

هذه كلها واجبات لا بد أن ننهض بأعبائها حالاً ... فإلى العمل » .

* *

وبعد ...

فها نحن قد رأينا مما تقدم كيف أننا لم نسر على نظام اقتصادى معروف لا نظرياً ولا عملياً ، وأن هذا الغموض والارتجال قد أدى بنا إلى ضائقة أخذت بمخائق الناس جميعاً .

وليس الشأن أن نرتجل الحلول ، ونواجه الظروف ، بالمخدرات والمسكنات التى يكون لها من رد الفعل ما ينذر بأخطر العواقب .. ولكن المهم فى أن ننظر إلى الأمور نظرة شاملة محيطية وأن نردها إلى أصل ثابت تستند إليه ، وترتكز عليه ، وليس ذلك الأمر إلا « النظام الإسلامى » الشامل الدقيق ، وفيه خير السداد .

لقد أتاح الله لنا من أسباب اليسر الاقتصادى ، والنجاح المادى ما لم يتحبه لغيرنا من الأمم والشعوب ، فهذه الرابطة الوثيقة من اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ بيننا وبين أمم العروبة والإسلام ، وهى بحمد الله أغنى بلاد الله فى

أرضه ، أخصبها تربة ، وأعدلها جواً ، وأكثرها خيرات ، وأثرها بالمواد الأولية وبالخامات من كل شيء .

هذه الرابطة ، تمهد لنا - لو أحسنا الانتفاع بها - سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال الاقتصادى ، وتنقذنا من هذا التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما .

ولا يكلفنا الأمر أكثر من أن نعزم ونقدم ، ونقوى الصلة ونحكم الرابطة ، ونوالى البعثات والدراسات ، ونحاول بكل سبيل إنشاء أسطول تجارى ، ونشيع روح الوحدة والتعاون بيننا وبين أبناء الإسلام .

* *

● الترقيع والتغيير الجزئى لا يجدى :

على أن هذه الحلول والمقترحات كلها لا تغنى ما لم تكن مشدودة إلى أصل مكين ، وأساس متين ، ترجع إليه كل التغييرات : أساس عقيدى « أيديولوجى » . وبعبارة أخرى لا بد من « لون » جديد للحياة ، ومن « رسالة » جديدة للأمة ، تؤمن بها وتعيش لها ، وتجاهد من أجلها .

ومن هنا صدر الأستاذ مقالاته هذه بمقالة هامة تحت عنوان « أى لون نختار » ؟ وضّح بها هذه الحقيقة الكبيرة قال فيها :

« تسود مجتمعنا اليوم « حيرة » وإذا دامت الحيرة فليس وراءها إلا الثورة ، والثورة الهوجاء التى لا غاية لها ، ولا ضابط ولا نظام ولا حدود ، ولا تُعقب إلا الهلاك والدمار والخسارة البالغة ، وبخاصة فى هذا العصر الذى لا يرحم ، والذى تتجارى بأهله الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، وفى وطن كمصر تتطلع إليه الأنظار ، وتتقاذفه المطامع فى الداخل والخارج .

« هذا الكلام متفق عليه بين كل من يعنيه أمر هذا الوطن ، وإنك لتسمعه من الزعماء والمفكرين ، كما تسمعه من العامة فى مجالسهم والمجتمعين فى

أنديتهم ، وذوى الأعمال فى أماكن عملهم ، ومن سائق العربة إذا ركبَت معه ،
ومن بائع الخضر إذا تحدثت إليه .. وإذا أنكرنا ذلك ، أو تغافلنا عن أثره ،
أو استصغرنا نتائجه ، كنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمل وتظن أنها
بذلك تخدع الصياد .

*

« وفى مثل هذه الحال لا يجدى فى الإنقاذ الترقيع الإدارى ولا الروتين
الحكومى ، ولا تسعف الحائرين الدراسات البطيئة فى اللجان المتواكلة .
وما يزداد المتبرمون بمثل هذا العلاج الجزئى المادى إلا تبرماً وألماً . ومهما تحاول
الحكومة بالإنصاف أو التنسيق . أو الوعود والخطب ، أن تُسكت الأفواه
الصارخة أو البطون الجائعة ، أو الأجساد العارية ، فلن تستطيع ذلك ، ولن
تصل إليه ، والبرهان ماثل والدليل قائم ، لأن الحيرة والقلق والاضطراب قد
مسّت النفوس والقلوب والأذهان ، قبل أن تمس المظاهر والأوضاع ، وحينئذ لن
تقنع النفوس ولن تطمئن إلا إلى « رسالة جديدة » ولون من ألوان الحياة جديد ،
ترى فيه رمزاً لأمانيتها ، وسبيلاً إلى تحقيق مطالبها ، ومتى آمنت النفوس
« بالرسالة الجديدة » كفكرة ونظام ، اطمأنت إليها وسكنت ، وحاولت أن
تطبقها عملياً على أوضاع الحياة ، وكل تاريخ النهضات والإصلاحات الشاملة
يعطينا الدليل على صحة هذا الكلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) ..

*

ومن هذه الثغرة ، وتطبيقاً لهذا القانون الاجتماعى الذى لا يتخلف ، تأمل
المبادئ الجديدة والدعوات الجديدة أن تنفذ إلى مصر ، وتكافح فى سبيل
استيلائتها على النفوس المصرية والقلوب المصرية أشد الكفاح ، وتسلك إلى ذلك
كل سبيل مستطاعة وغير مستطاعة . ومن هنا سمعنا كثيراً من هذه الأصوات
يتردد فى الصحف السيّارة وفى المجالس والمنتديات ، فالشيوعية جادة فى فرض
تعاليمها على أبناء هذا المجتمع ، والديمقراطية الاستعمارية الهزيلة تحاول من
جانبها أن تقاوم هذا التيار ، ويتوسطهم قوم داعون للاشتراكية .

(١) الرد : ١١

ويقف بين هؤلاء جميعاً وبين أمتنا الإسلام العتيد المستقر في هذه القلوب أربعة عشر قرناً ، المستولى عليها ، المؤثر فيها بجماله وجلاله وسموه وروعته - يأبى على الجميع أن ينزل عن مرتبته أو يتخلى عن هذه القلوب التي آمنت به وجاهدت أكرم الجهاد في سبيل إعلائه وبقائه ورفعته ، وردت عنه بهذا الجهاد غارات الصليبيين ، وهجمات التتار ، ومكايد الصهيونية : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ..

*

ولكن إلى متى هذا الكفاح والتطاحن بين هذه الآراء والأوضاع التي تذرعت بها الأبواب والأذهان إلى حد إن كان اليوم صغيراً فهو لن يظل كذلك ؟! وإلى متى ينظر أهل الرأي في مصر إلى هذا الصراع في غفلة وبله وانصراف كأن الأمر لا يعنيه ، وكأنه يتناول بلداً غير بلدهم وأشخاصاً غير أشخاصهم ؟! لا مناص لنا من أن نختار ، وإذا لم نختار اليوم ونحن راضون ، فنستقبل غداً - بل الغد القريب جداً - ونحن مرغمون ، وإنى أرى الوميض خلال الرماد ، ويوشك أن يكون له ضرام .

*

« لا بد من أن نختار لون الحياة الجديدة التي نحيها - ولم تعد أوضاع الحياة الاجتماعية بكل نواحيها في مصر صالحة أمام التطور الجديد في الأخلاق والأفكار وحاجات الناس - والعاقِل مَنْ تدبر الأمر قبل وقوعه وأعد له عُدَّتَه . » ونحن في الحقيقة لسنا مخيرين ولسنا أحراراً في الاختيار ، إننا جميعاً آمناً بهذا الإسلام الحنيف ديناً ودولة ، واعتبرنا مصر دولة إسلامية ، بل هي زعيمة دول الإسلام ، وقال دستورنا صراحة في مادته التاسعة والأربعين بعد المائة : « دين الدولة الرسمي الإسلام ، ولغتها اللغة العربية » .

« وهذا الشعب - شعب وادي النيل كله في الشمال وفي الجنوب - يدين بهذا الدين الحنيف ، والأقلية غير المسلمة من أبناء هذا الوطن تعلم تمام العلم

كيف تجدد الطمأنينة والأمن والعدالة والمساواة التامة فى كل تعاليمه وأحكامه ، هذا الذى يقول كتابه : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) والكلام فى هذا المعنى مفروق منه ، وهذا التاريخ الطويل العريض للصلة الطيبة الكريمة بين أبناء هذا الوطن جميعاً - مسلمين وغير مسلمين - يكفيننا مؤنة الإفاضة والإسراف ، فإن من الجميل حقاً أن نسجل لهؤلاء المواطنين الكرام أنهم يقدرون هذه المعانى فى كل المناسبات ، ويعتبرون الإسلام معنى من معانى قوميتهم ، وإن لم تكن أحكامه وتعاليمه من عقيدتهم .

« وإذن فلا مناص للحكومة المصرية ، والهيئات المصرية ، والأحزاب المصرية ، من أن تفى بعهدها الشرعى لله ولرسوله - يوم نطقت بالشهادتين ، فالتزمت الإسلام - وبعدها المدنى اتوطني لهذا الشعب يوم أصدرت الدستور ، ونصت فيه على أن الدين الرسمى هو الإسلام . وبغير ذلك تكون قد غدرت بعهدها ، وخانت أمانة الله والناس عندها ، وعليها أن تصارح الشعب ليحدد موقفه منها وموقفها منه ، ولا محل اليوم للمداورة والخذاع .

✽

« وهذا الوفاء سيحمى الوطن مما يهدده من أخطار اجتماعية داهمة ، ويعيد الطمأنينة والسكينة إلى النفوس والقلوب ، لكنه يستلزم حالاً تغيير الاتجاهات والأوضاع كلها والمجاهرة بأن وادى النيل هو حامل رسالة الإسلام ومنفذها ومبلغها فى غير موارد ولا وهن ، ولا يغنى عن العمل الكلام .

« فهل تصيخ الآذان المغلقة إلى هذا النذير ، فتعود إلى حجر الإسلام قولاً وعملاً وتطبيقاً ؟؟ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (٢) ..

* *

● الامتحان الأخير للبرالية العربية :

كانت الليبرالية العربية أغبى من أن تصل إلى آذانها وقلوبها تلك الصيحات والتنبيهات المخلصة الواعية التى رفعتها الحركة الإسلامية إلى كل مسئول ، وكل ذى رأى أو قُدرة . فقد كان القوم فى سكرتهم يعمهون ، وفى ربهم يترددون ، وفى « دواكتهم » التقليدية يغوصون ثم يطفون !

ثم كان الامتحان الأخير للبرالية العربية فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، حين دخلت الجيوش العربية فى ١٥ مايو بعد انسحاب بريطانيا .

وكان نتيجة الامتحان ما أصبح معروفاً لكل عربى وكل مسلم : الهزيمة والفشل ، وضياح « فلسطين » ، وقيام « إسرائيل » ، وتشريد مليون عربى من أبناء فلسطين .

أجل .. تحقق حلم صهيون . وأصبح لليهود دولة ، وقامت « إسرائيل » وفى قبضتها مساحة من الأرض أكثر من كل ما عُرض على عرب فلسطين من قبل فرفضوه .

لقد تبين أن الجنود المحاربين كانوا يقاتلون بأسلحة فاسدة .

وقال أحد القواد فى الميدان : إنى لا أخاف من « شرتوك » تل أبيب - وزير خارجيتها حينذاك - بقدر ما أخاف من « شراتيك » القاهرة !

وكان مصير الشباب المؤمنين من المتطوعين الذين ضربوا أروع الأمثال ، وسطروا بدمائهم صحائف المجد لأمتهم . الزج بهم وراء القضبان فى المنافى والمعتقلات .

وكان مصير « الجماعة » التى تبنت قضية فلسطين فى مصر يوم كان الناس عنها غافلين كل الغفلة ، ورفعت شعار « الجهاد فى سبيل الله » لتحرير الأرض المقدسة ، وقدمت صفوة أبنائها للمعركة مع اليهودية الخبيثة - كان مصيرها « الحل » والتنكيل والتعذيب ، والمصادرة ، ليتيم توقيع هدنة « رودس » وتتمكن إسرائيل من التقاط أنفاسها ، وبناء قوتها ، وتثبيت دعائمها ، بهذه الفرصة الذهبية التى أتاحها لها الحكم المصرى .

واغتيل رئيس الوزارة الذى وقَّع الهدنة ، ونُكِّل بالجماعة المجاهدة ، وسيق جماعة من صفوة أبنائها إلى ظلمات السجن بتهمة « الاتفاق على قلب نظام الحكم بالقوة » . ثم اغتيل من بعدُ مؤسس هذه الجماعة ومرشدها ، على أيدى رجال الحكومة ، وبسيارة حكومية ، وفى أكبر شارع من شوارع القاهرة ، ليكون هدية للملك فاروق بمناسبة عيد ميلاده (١١ فبراير) .. أى نفس صباح اليوم الذى قُتِل فى مسائه الشهيد « حسن البنا » .

وازدادت سطوة الإرهاب ، واشتدت وطأة الطغيان ، وامتألت السجون والمعتقلات . ولم يكن من الممكن أن يدوم هذا طويلاً ، فسقطت وزارة الأقلية والارهابية . وبدأ الاستعداد لانتخابات جديدة ، وانتُخب برلمان جديد ، وشكَّلت حكومة جديدة ، وهبَّت رياح الحرية على الوطن المصرى باردة منعشة . ونفَّس الناس عن مشاعرهم المكبوتة ، وأفكارهم الحبيسة . ضدَّ الظلم والظلام . ضدَّ الاستعمار وأعوانه . ضدَّ الإقطاع والاحتكار . ضدَّ الفساد والطغيان . ضدَّ الترف والانحلال . ضدَّ القصر وحاشيته . ضدَّ المتاجرين بالحكم ، والمتلاعبين بالوطن ، والمستغلين للشعب . ضدَّ الذين صنعوا هزيمة سنة ١٩٤٨ . ضدَّ الذين تاجروا بالأسلحة الفاسدة . ضدَّ كل الأوضاع الجائرة المنحرفة .

وكان للتيار الإسلامى - بألسنته وأقلامه ، وأفراده وشعبه ومراكزه الممتدة فى جسم الشعب كالشعيرات الدموية - القدح المعلن فى إثارة هذه الأفكار والمشاعر ، وفى قيادة الحركة الشعبية ضدَّ قوى الظلم والظلام .

وساعد على ذلك جوُّ الحرية الذى نعمت به البلاد فى تلك الفترة الذهبية القصيرة التى لم تر مصر مثلها إلى اليوم .

ثم كانت حركة المقاومة للإنجليز فى قناة السويس التى تزعمتها الحركة الإسلامية ، وكان شبابها فى الجامعات والأزهر فى طليعة أبطال الجهاد ، ولم يبخل القَدَر عليهم فاتخذ منهم شهداء ، وضمهم إلى سجل الخالدين ، وبقيت أسماء : عمر شاهين ، وأحمد المنيسى ، وعادل غانم ، وغيرهم تذكرة للذين تنسيهم الأيام . وحُجَّة على الذين يجحدون العيان .

ثم كان حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وإعلان الأحكام العرفية ، ودخول مصر فى عهد من القلقللة والتوجس والاضطراب كان لا بد أن يحدث بعده شىء . تنبأ به « حسن البنا » فيما نقلناه عنه حين قال : « إنى لأرى الوميض خلال الرماد ، ويوشك أن يكون له ضرام » !

كان التيار الإسلامى هو أقوى التيارات التى تقود الشعب وتوثر فيه . وكان المتوقع أن يكون هو وارث « الليبرالية » الفاشلة المنهارة ، وكان هذا التيار يمتد يوماً بعد يوم فيكتسب ولاء الألو ف إثر الألو ف ، بل الملايين بعد الملايين . بوضوحه وبساطته ، وشموله ، وتوازنه ، وسموه ، وقوة تأثيره ، ووجود رصيده فى فطرة الشعب وأعماقه .

ولكن القوى العالمية المتربصة بالإسلام - بأجهزتها الحساسة الراصدة لكل حركة إسلامية - كانت متنبهة غير غافلة عن بلد كمصر ، له مركزه الجغرافى والتاريخى والدينى والثقافى فى العالم العربى والإسلامى ، وله ثقله وتأثيره الذى لا يُجحد . كانت هذه القوى الجبارة تخشى - كل الخشية - أن تنجح الحركة الإسلامية فى مصر ، فتضم إلى قوتها الشعبية قوة الدولة وسلطان الحكم . وبذلك تتاح الفرصة لظهور « صلاح الدين » آخر فى مصر ، فتتبخر أحلام اليهود فى القدس وفلسطين ودولة إسرائيل الكبرى ، من الفرات إلى النيل ، كما تحطمت من قبل آمال الصليبيين . فكان لا بد من البحث عن وارث - غير إسلامى - لليبرالية المؤلّية ..

وانتهت هذه الفترة القلقللة المضطربة بقيام الجيش المصرى بالانقلاب العسكرى الذى تم فى صبيحة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ (١) .

وغدت الجريمة التى اتهم بها رجال الحركة الإسلامية من قبل ، ودخلوا من

(١) يراجع كويلاند فى « لعبة الأمم » تعريب مروان خير - نشر دار الفتح - بيروت .

أجلها السجون . وذاقوا ألوان العذاب - جرعة قلب نظام الحكم بالقوة - هي نفسها المأثرة التى يفخر بها رجال الجيش « الأبطال » !

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطيء الهبل

ولا شك أن هذا « الانقلاب » قد صفق له الشعب ، وأيدته كل القوى ، وفى مقدمتها الحركة الإسلامية التى لم تسبر غور هؤلاء الضباط الأحرار ، ولم تعرف ماذا يضمرون نحو الإسلام ، وقد غرّوا الكثيرين بمظهرهم ، وتظاهروا بأنهم « حملة المصاحف » ، وأنصار الله ، وعسكر الإيمان .

كان تأييد الشعب لهذا الانقلاب على أساس أنه سيزيل السلطة الفاسدة ، ويتيح الفرصة لتعديل الدستور ، وإجراء انتخابات حرة نزيهة يتسلم المدنيون بعدها السلطة ، ثم يعود الجيش إلى ثكناته مشكوراً ، مجللاً بالثناء . أما أن يتولى العسكر السلطة إلى الأبد ، فلم يكن هذا فى حسابان أحد ممن أيدوا الانقلاب .

لم يكن هذا « الانقلاب » فى بدايته يسمى « ثورة » وإنما يسمونه « حركة الجيش المباركة » . بل كان قائد الانقلاب فى ذلك الحين - اللواء محمد نجيب - يحذر من إطلاق كلمة « ثورة » ويقول : « لا تقولوا : ثورة ، بل نهضة وتطور إلى الإمام » . ولكن بمرور الأيام بدأت تظهر كلمة « ثورة » إلى حيز الإعلام ، وعلى أطراف الألسنة والأقلام . وعرف الناس « مجلس الثورة » و« محكمة الثورة » ثم « فلسفة الثورة » .

والذى يبدو من استقراء الأحداث أن قادة هذا الانقلاب - أو هذه الثورة - لم يكونوا يحملون فكرة أو « أيديولوجية » جديدة . إنما كانت عندهم بعض أفكار - من هنا وهناك - عن إصلاح الفساد ، وعن العدالة الاجتماعية ، وتقوية الجيش ، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة ، مما لا يخرج - كثيراً - عن الخط الليبرالى الديمقراطى السابق ، حسبما أعلن فيما بعد عن المبادئ أو الأهداف الستة .

ثم ظهر الاتجاه الاجتماعى للثورة فيما سمي « الاشتراكية الديمقراطية التعاونية » . إلى أن جاءت قوانين يوليو سنة ١٩٦١ ، فاتجهت بالثورة ، أو اتجهت بها الثورة ، وجهة « الاشتراكية الثورية » ، التى لم تكن تحلم يوماً بمثل هذا الانتصار فى عالمنا العربى ، لولا أن فُرضت بأسنة الرماح !

لقد بدأت الانقلابات العسكرية فى العالم العربى منذ سنة ١٩٤٩ ، حين قام « حسنى الزعيم » بحركته العسكرية فى سوريا ، وقد ثبت مؤخراً أنه كان بوحي أجنبى إمبريالى ^(١) - ثم كانت انقلابات الحناوى فالشيشكللى .

ولكن الاتجاه الثورى لم يتضح إلا بعد ظهور ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، التى كانت بداية لموسم ثورات أخرى فى عالمنا العربى ، انتهى بقيامها عهد الليبرالية المهترىء ، وانتقل بها الحكم من « الساسة المحترفين » إلى « الضباط المغامرين » وانتقلت البلاد من دوامة « الحزبية » لتدخل فى دوامة « الثورية » .

وبقى قليل من البلدان العربية الليبرالية يعانى مرض الموت ، أو الشيخوخة ، ولكنه يحاول تأخير النهاية بالحقن المقوية ، وهيهات هيهات ، فلكل داء دواء إلا الهرم !



● فشل الليبرالية فى تركيا :

وكما أثبتت التجربة الليبرالية الغربية الديمقراطية فشلها فى البلاد العربية ، أثبتت فشلها كذلك فى البلاد الإسلامية الأخرى .

وأوضح مثل لهذا الفشل هو تجربة تركيا الحديثة . تركيا « أتاتورك » التى أخذت التجربة الليبرالية الغربية بحذافيرها ، وغاصت فيها إلى أذقانها ، وحاولت أن تخلق من الشعب الشرقى المسلم شعباً غربياً فى كل شىء .

(١) لعبة الأمم - المصدر السابق .

لقد اصطدمت هذه المحاولة الجريئة المحمومة بطبيعة الشعب : بعقيدته وشريعته ، بمقدساته ، بمفاهيمه ، بمشاعره ، بأنظمته ، بترائيه ، بتقاليده ، بكل ما يعتز به ويحرص عليه . ولكن قائد هذه التجربة ومن وراءه لم يبالوا بتحطيم أى شىء فى سبيل غرضهم .

فماذا حققت هذه التجربة من منافع للشعب التركى الباسل ؟ وماذا قدّمت من ثمرات ؟ وماذا خلفت من آثار ؟

لقد كان الذى تنشده « تركيا » هو « التقدم » هو « التكنولوجيا » هو « العلم » الذى تعمر به أرضها ، وتطور به اقتصادها ، وتسألح به جيوشها ، ويخرجها من الضعف إلى القوة ، ومن الاعتماد على الزراعة إلى تطور صناعى يليق بها .

ولكن المؤسف أن هذا كله لم يتحقق برغم الثمن الباهظ الذى دفعه الشعب التركى المسلم ، وبرغم مرور نحو نصف قرن على التجربة الكمالية .

ولقد زرتُ تركيا الشقيقة أكثر من مرة ، فلم أجد آثار نهضة علمية ولا صناعية كما كنتُ أتوقع ، بل وجدتُ آثار الفقر والتخلف بادية للعيان ، ولم أر معالم بارزة يمكن أن يقال : هذه مآثر « التغريب » الليبرالى الكمالى ، إلا صور وقنايل « الزعيم البطل » فى كل محل وكل مكتب وكل ميدان !! كل ما رأيته من معالم ومآثر ؟ إنما هو من آثار سلاطين آل عثمان !

ولا غرو أن وجدت مظاهر التذمر والسخط والبلبلة والشكوى من سوء الأحوال ، واختلال الأوضاع فى كل مكان ، وعلى كل لسان .

ولم يكذب يشعر الشعب بشىء من البهجة والحرية الدينية فى عهد المرحوم « عدنان مندريس » . حتى انفجرت الروح الإسلامية فى الشعب التركى ، وبدا أن السنوات السود التى مرّت به لم تُغيّر حقيقته ، وظهر نشاط إسلامى فى مجالات عديدة ، ارتعدت له القوى المعادية للإسلام ، فكان انقلاب الجيش بقيادة « جمال جورسيل » ومحاكمة « عدنان مندريس » وقتله ودفنه سراً ،

بحيث لا يعرف الشعب مكان قبره . واليوم تتوزع تركيا اتجاهات ثلاثة : الاتجاه
الكمالى ، ويدعمه الاستعمار من الخارج ، وأولياؤه من ضباط الجيش فى
الداخل .. والاتجاه اليسارى ، وتدعمه الدول الشيوعية .. والاتجاه الإسلامى ،
ولا يدعمه إلا الله وإيمان الشعب .

ولا يدرى إلا الله عاقبة هذا الصراع والانقسام .

* * *